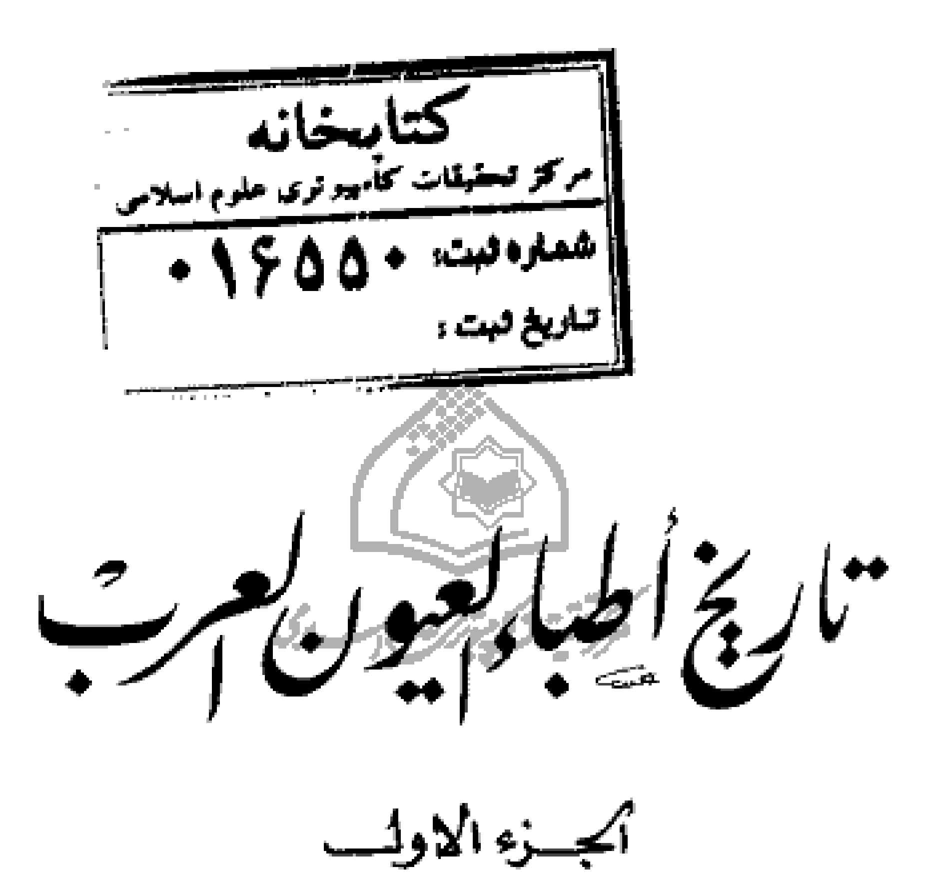
تاريخ اطباء العيون العرب

الجزء الاول



نشأت الحمارنة



تاريخ أطباء العيون العرب

الجزء الاول

اصدار خاص

من مجلة

الكحال

الطبعة الثانية
١٩٨٥


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی



الإهداء

إلى

الأستاذ الدكتور فؤاد سزكين


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

هذا الكتاب

لا اظن ان احداً ينتظر صدور هذا الكتاب ، حتى الذين سمعوا به يوم كنت اكتب مادته ..

انه كتاب موجه لعامة الناس ، ((لجمهور القراء)) كما يسميهم الكتاب . يعرض سيرة اهم اطباء العيون العرب عبر التاريخ الطويل ، يعرّف بهم ، ويلخّص إنجازاتهم . ((وجمهور القراء)) عادة لا ينتظر الكتب التي تكتب له . وهو ليس مكتوباً بلغة طبية فنية فهمهما حكر على الاطباء ، بل وليس مكتوباً بلغة المؤرخين المتخصصين الذين يعنون بتاريخ العلوم .

لقد حاولت ان ابسط مادته الى ابعد الحدود الممكنة ، حتى انني ظننت احياناً ، ان اطباء العيون ، لن يقراوا هذا الكتاب لشدة بساطته .

انه لا يحمل وقار الكتب الجامعية ، ولا تزمت كتب التاريخ ، ولا هيبة كتب السير . لا تثقله الحواشي ، ولا الهوامش ، ولا يضيع فيه القارىء في خضم الاسنادات والاقتباسات .

ومع ذلك ، فالمادة التي في الكتاب صحيحة ومسندة ومدروسة ، وهي تلخيص لجهود كوكبة من افاضل مؤرخي الطب في هذا العصر .

ولقد سالت نفسي مراراً : ماذا يهم ((جمهور القراء)) من امر اطباء العيون العرب ، وتاريخهم ، وانجازاتهم ؟

بل ماذا يهم الأطباء من امر اسلافهم ؟

ان الاهتمام بالتاريخ ، هو جزء من حب المعرفة . والشغف باستطلاع الماضي ، هو رغبة عند الانسان ، لا نستطيع إقناعه بجدارتها .

ولكننا إذا عرضنا التاريخ امامه ، ربما استهواه .

ولقد حرصت على مراعاة الحقيقة ، في سرد الماضي . هذه الحقيقة التي لم يكن من السهل على المؤرخين ، استقراؤها من بين العديد من الروايات .

وساراعي العرض الحيادي للحقائق التاريخية . وساتوخى الايجاز الشديد خاصة ، وان اطباء العيون العرب بسيرتهم وخلقهم وانجازاتهم وآثارهم يدفعون المؤرخ العربي الى مزالق الحماس والتفاخر .

ولن يتغنى هذا الكتاب بعظمة الماضي ، وعظمة الذين ذهبوا ، بل سيعطيهم حقهم باعصاب باردة .

وقد لا يعجب اسلوبي هذا بعض المتحمسين ، الذين اعتادوا على شعر الفخر . ولكني واثق من ان الحقائق المجردة ، التي تفوق كثيراً في عظمتها كل التصورات والتوقعات ، والتي سيعرضها هذا الكتاب ، هي الأسلوب الأمثل لعرض التاريخ بكل ما فيه من ايجابيات .

فليت هذا الكتاب يعطي فكرة امينة عن اسلافنا العظماء هؤلاء دون حماس ودون تفاخر .

ولعل الكتاب ، يعجب عامة القراء ، ولا يقتصر على الأطباء ولا يقتصر على المؤرخين ، بل لعله يجد بين طلاب الطب الأرض الخصبة لنمو الاحساس بالتاريخ ، ولنمو ظاهرة حب تاريخ العلوم ، وخصوصاً تاريخ الطب .

نشأة الطب

آ- كيف مارس الانسان الطب؟

ب - كيف ظهرت النظرية الطبيّة

١ ـ كيف مارس الانسان الطب ؟

لعل مسالة الصحة والمرض ، من اقـدم المسائل التي شغلت ذهن الانسان . بل لعلها تاتي في الدرجة الثانية بعد مسالة تامين الطعـام ، والمأوى . بمعنى ان قلق الانسان على نفسه ، مما قد يصيبه من مرض او حدث مفاجيء ، كان قد اثار مخاوفه . اذ طالما أصيب الانسان الصياد القديم اصابات متفاوتة الشدة ، أثناء صراعه مع الحيوانات من أجل الغذاء . وطالما اصيب الانسان أيضا ، من الحيوان المهاجم الذي يجاهد هو أيضا من أجل بقاء النوع ، ولقد كانت بعض هذه الاصابات ، قابلة للشفاء ، وبعضها كان قاتلا . فلا عجب اذن أن تكون ممارسة الاسعاف ، من اقدم ما احتاجه الانسان ، بل لعل مهمة الاسعاف الطبي والجراحي ، كانت مهمة مطلوبة ، من كل الافراد في المجتمعات البدائية .

فان حاجـة الانسان الى حفظ صحتـه ، ودفـع اذى الجروح والرضوض عنـه ، كانت حاجـة اساسية ، جاءت مباشرة بعد احتياجاته الغريزية المبدائية .

واذا صح هذا الامر ، وهو صحيح عند علماء الاجتماع ومؤرخي الانسان القديم والسلالات البشرية ، اذا صح هذا ، فان قدرا معينـا من التفكير يكون قـد صاحب هذه الممارسة ، وهذا الاهتمام .

لابد أن يكون الانسان القديم البدائي قد لاحظ بعض الملاحظات الذكية التي افادتـه في مهمته هذه ولربما جرب أيضا ، وبما تجمعت لديه على مدى قصير او طويل ، ملاحظات وتجارب ، فتراكمت عنـده أولا ، ثم عند مجموعة من الناس متصلة به بعض هـذه الاشكال من المعرفـة العلمية ، ولا بد أن الانسان القديم ، استعمل ذكاءه في ابتكار بعض الحيل

او الاساليب لتجبير ساق مكسور لزميل ، في الصيد ، او لايقاف نزف من جرح قاطع ، لانسان شريك في المسكن ، هاجمه حيوان مفترس .

بل لعل هذا الانسان القديم ، تعلم كثيرا أو قليلا من ملاحظاته وتجاربه مستعملا ذكاءه ، ثم ذاكرته ، فتكونت مع الزمن ، وعلى مرور الاجيال حالة من المعرفة العلمية المتواضعة ، سمحت للانسان البدائي هذا بأن يمارس بعض اشكال الاسعاف .

فالممارسة الطبية قديمة اذن ، قديمة قدم الانسان نفسه ، ولا بد أن نميز هنا ، بين ردود الفعل الغريزية ، التي يلجأ اليها الانسان ،ويعرفها تماما كما يعرفها الحيوان ، وبين هذا الشكل من أشكال الممارسة الطبية المقتصرة على الانسان .

ولا داعي لايضاح المزيد حول هذا الامر ، واكتفي بذكر مثل واحد : فان نقاشا طويلا قد وقع بين مؤرخي العلم حول مسألة اعتبار عملية الولادة عند الانسان القديم عملا طبيا ، أو عملا غريزيا .

واذا كان الاسعاف ، قد شغل حيزا من تفكير الانسان ، فلا بد أيضا أن الامراض الحادة مجهولة السبب ، قد دعت هذا الانسان الى أعمال الفكر والبحث عن سببها .

ب ــ كيف ظهرت النظرية الطبية ؟

ولا بد ايضا من القول ان التساؤل عن سبب الموت ، كان من المسائل التي لم تشغل ذهن الانسان البدائي فحسب ، بل ارهقته ، واثقلت عليه، ولعل سيل الاسئلة التي طرحها هـذا الانسان على نفسه لم ينقطع ، بل ظلت الاسئلة تتوالى . آتية معها بأقدم التساؤلات الفلسفية التي وجهها الانسان الى نفسه ، ولعل هذا العصر الذي تبلورت فيه هـذه الاسئلة ، هو عصر ولادة الفلسفة ، والديانات القديمة ، والنظرية الطبية.

هذا العصر ، هو عصر البحث عن مصدر الخير ، ومصدر الشر ، سبب الحياة ، وسبب الموت ، سبب الصحة ، وسبب المرض .

وكما جمح خيال الانسان بعقله ، وجعله يتصور كائنات ومخلوقات ما وراء الطبيعة ، عزا اليها القوى الخارقة في الكون ، وتصورها مسؤولة عن حركات الافلاك وتبدل الفصول وتعاقب الليـل والنهار ، فانه ايضا جعل هـذه الكائنات المطلقة القوة مسؤولة ايضا عن الخير الذي يصيبه والشر الذي يعتريه ، وانتهى به المطاف الى ان جعل من نفسه اسيرا لهذه القوى ، فاصبحت هي السيدة في هذا الكون وهو المسود ، هي الخالقة ، وهو المخلوق ، هي الآلهة ، وهو العبد .

وفي ظل هذا النظام الذي تصوره الانسان ، وجعل نفسه جزءا منه ، كان لابد من أن تكون بعض القوى المطلقة مسؤولة عن الخير ، وبعضها مسؤولة عن الشر ، بعضها يرعى الصحة ، وبعضها يرعى المرض ، بعضها يحفظ الحياة ، وبعضها يسبب الموت .

واذا عرف الانسان مصـدر سعادته ، ومصدر شقائه ، فانه من الطبيعي اذن ان يتقرب الانسان الى هذه الآلهة الخيرة ، رقيقة القلب . طالبا المزيد من الرعايـة ودوام الصحة ، والنجاة من الشرور .

وطبيعي ان يتنافس الناس في هذا التقرب ، وطبيعي ايضا ان يظهر الوسطاء بين الانسـان والآلهـة ، يوهمون الانسان المسكين ، ان طلباته لن تلبى بدون تدخلهم وشفاعتهم ، وان الآلهة تجيد الاصغاء اليهم ، وتلبي بما يرغبون .

وهكذا ظهرت طبقة جديدة بين الآلهة والناس ، لها قوة يظن انها من السماء ، ولكن الانسان هو الذي بايعها ، هو الذي خلقها .

هكذا خلق الانسان آلهة ترى صحته ، وتحفظ سعادته ، تساعد الحامل في اشهر حملها الصعبة ، وترعاها عند ولادتهـا ، وهكذا خلق الانســان طبقة من الكهان الذين يتوسطون بين هذه الآلهة ، وبين البشر .

وهكذا ايضا ظهر الكاهن ، والطبيب ، الذي يصف الدواء ، ويقدم الدعاء ، والذي تركزت فيه قوى ميزته في مجتمعه ، بل وتجمعت عنده تجارب ، ومعارف ، جعلت منه رجل دين ، كما جعلت منه رجل علم .

وهكذا اتخذ الانسـان الذبيحة ، وسيلة للتقرب الى الآلهة .

واذا كان عقل الانسان قد وجد الراحة في هذه النظرية التي صاغها لنفسه ليفسر بها علاقته بالكون واحداث الحياة ، فان المزيد من التفكير كان من شانه أن يسبر عوالم اخرى من المجهول ، كان لابد للعقل من أن يبحث عن كنه المرض ، وعن آلية حدوثه .

لقد كان من السهل تفسير وقوع ما نسميه اليوم بالجوادث الطارئة ، كالغرق ، او الكسر ، او الجرح ، ولكن الامراض الاخرى كانت ما تزال تبحث عن تفسير .

لقد لاحظ الانسان البسيط اقتران بعض الامراض بفصول السنة ، كما لاحظ علاقة بعض الامراض الاخرى بالمناخ ، فتصور أن الصحة ان هي الا توازن سليم لمكونات الجسم الاساسية . وان التوازن هذا هو الصحة، وان اختلال التوازن هو المرض . وكما أن الكون يتشكل ـ حسب نظرية الاقدمين ـ من عناصر اربعة هي : الماء ، والهواء ، والتراب ، والنار . وان مؤثرات اخرى ، اربعة ، تؤثر في العالم ، وفي الكائنات هي : الرطوبة ، والجفاف (اليبس) ، والحرارة ، والبرودة . فكذلك ان هذه العناصر الاساسية في الكون ، لن تبقى بمعزل عن التاثير في جسم الانسان.

لذلك فان جسم الانسان بدوره يتكون من اخلاط اربعة : الدم ، والبلغم ، والسوداء ، والصفراء . ويخضع بدوره ايضا الى مؤثرات : الحر ، والبرد ، والرطوبة ، واليبس . ويفعل في جسمه تأثير الفصول : الصيف ، والشتاء ، والخريف ، والربيع .

والطبيب : عليه أن يحفظ توازن هذه الاخلاط ، لان توازنها هو الصحة ، ولان اختلال هذا التوازن هو المرض .

لقد ظهرت اولى الممارسات الطبية عند أقدم المجتمعات البشرية البدائية ، وفيها ظهرت شخصية الكاهن الطبيب ، ثم تطورت هذه الممارسة عند الحضارات المغرقة في القدم ، وعند هذه الحضارات ، ظهرت تباشير المهنة الطبية بمعناها الاكثر تطورا .

فاذا وصلنا الى حضارة بلاد النيل ، وبلاد ما بين النهرين ، صادفنا المجتمع الاكثر تطورا ، حيث ظهرت المهن الطبية ، والاختصاص في الطب ، وطبقات الاطباء من حيث اهميتهم الاجتماعية ، كما صادفنا معرفة علمية متطورة بالاعشاب الطبية ، واصول بعض انواع الجراحة ، كما صادفنا الارهاصات الاولى للنظريات الطبية المتكاملة ، التي اتيح لها ان تاخذ شكلها النهائي عند الاغريق .



الطب في الحضارات الأقدم

تأثر الطب، كما تأثر الفن والتفكير، في مصر القديمة بالنظرية التي حكمت المجتمع ، نظرية البعث بعد الموت . لذلك حرص الناس ، على أن لاتبلى اجسامهم بعد دفنها ، لكي تكون جديرة يوم القيامة بأن تحل فيها الروح من جديد ، لذلك ظهر التحنيط ، واصبح علما راقيا . مازلنا حتى اليوم نعجز ان نجاريه في حفظ الجثث من البلى ، ولذلك بنيت الاهــرام لكي تحفظ للفرعون ــ ظل الله على الارض ــ جثته ، وجثث افراد عائلته بعيدة عن زحمة الناس العاديين .

واتيح لمصر القديمة من المعارف الطبية ، والاطلاع على تأثير الاعشاب على الجســم ، ومن القدرة على بعض التداخلات الجراحية ، وكذلك من المقدرة على التأثير النفسي ، اتيح لها قدر اذهل العالم اليوناني حينما اطلع عليه بعض قدمــاء عشابي اليونان ، فقال مؤرخ معاصر لهؤلاء : ان مصر مخزن لا ينضب من الاعشـاب الطبية .

ولم يكن ذهول العالم اقل من ذلك ، حينما اكتشفت بعض الكتب الطبية المصرية القديمة مكتوبة على اوراق البردئ ، فدعيت (في القرن التاسع عشر) بالبرديات او القراطيس ، واتيح للعالم العصري ان يتعرف على أدوية يعود عهد الانسان بها الى ستة آلاف عام ، ما يزال بعضها مستعملا في الطب الحديث حتى اليوم .

وازداد عجب الباحثين المعاصرين ، الذين يعنون بدراسة الانسان القديم ، والسلالات البشرية ، والحضارات البالية ، ازداد عجبهم كيف اتيح للمجتمع المصري القديم ان يعرف كل هــذا ؟ وتأملـوا كــم مــن القرون قد مر على الانسان البدائي ، حتى تراكمت لديه كل هذه المعلومات قبل عصر التدوين .

وفي مصر القديمة ، ظهر الاختصاص الطبي ، وظهرت طبقات بين الاطباء بعضهم للبلاط وبعضهم للشرفاء ، وبعضهم للعامة .

ونستطيع حتى الآن التعرف على بعض الامراض التي انتشرت فيمصر القديمة ، والتي عاني الناس منها ، فاذا درسنا الفن المصري دراسة اخرى – من وجهة نظر مؤرخ الطب – وتأملنا الناس الذين تظهر صورهم على جدران المعابد ، وحجبنا اعيننا عن أن يبهرها الابداع والجمال المتجليان في الفن المصري القديم ، اذا قمنا بهذه الدراسة ، نجد انفسنا امام حالات مرضية طريفة اجاد الرسامون والنحاتون في تصويرها وتخليدها .

واذا كان ارتقاء الطب يعتمد على فهم للتشريح ووظائف الاعضاء والامراض ، فان قدماء المصريين اتجهوا الى جهاز الدوران ، فاعتبروا العروق التي تخرج من القلب هي التي تحمل الحياة والسوائل المختلفة الى اجزاء الجسم البعيدة . ولذلك احتل الدم مكانا متميزا في (النظرية الطبية المصرية) ، وكذلك (القلب) ، فلا عجب ان يظل القلب حتى في اللغات الحديثة مركزا متميزا للعواطف البشرية ، (انكسر قلب فلان) (وفلان طيب القلب) ، (وفلان اضاع قلبه) .

وفي الجهة الاخرى من شرقي وطننا العربي تطورت النظرية بشكل آخر ، فاحتل الكبد مكان الصدارة في تفكير الطبيب القديم .

وعلى الرغم من أن الوثائق التي نملكها عن الطب القديم في بلاد ما بين النهرين تقل عن مثيلاتها التي نملكها عن مصر ، فانها تعطي قدراً من المعلومات يتيح لنا ان نعرف انهم في الشرق .قد استخدموا الاعشاب الطبية للمعالجة . شأنهم في ذلك شأن مصر ، بل ومارسوا العمل الجراحي وخاصة على العين ، ولذلك نجد في قوانين حمورابي ايضا اشارة واضحة الى ذلك .

وموضوع جراحة العين هذا الذي نسمع عنه في بلاد الرافدين لانرى مقابله في مصر القديمة (في حدود وثائقنا) .

ولقد تطورت حضارتا الرافدين ومصر ، في نفس الوقت تقريبا ، لذلك فاننا نلمس التشابه الشديد بين الحضارتين ، هذا التشابه الذي جاء ايضا نتيجة للجوار والصلات الواسعة في زمني السلم والحرب ، هذا التشابه الذي يجعل وصف امراض العين في كلا الحضارتين متقاربا .

حتى اسماء الاعراض والامراض تعطينا امثلة من التشابه ، كضعف البصر ، والم العين ، والتهابها ، والدماع ، والنزف تحت الملتحمة .

ولقد لاحظ مؤرخو الطب تأثر الفرس بكلتا هاتين الحضارتين حينما دخلت جيوشهم الى بلادنا ، وكذلك لاحظوا انتقال هذه المعلومات الطبية مترجمة الى الارامية اولا ، ثم الى الاغريقية ايام الاحتلال اليوناني .

كما اشاروا الى الروح العظيمة لهذه الامجاد العلمية الاتية من الشرق، والتي سطعت وتوهجت وانارت الطريق للحضارات اللاحقة ، وتابعوا ايضا من خلال دراساتهم التاريخية والمقارنة هذه الترجمات المتسلسلة للمعارف التي سموها « بالمعارف الشرقية » اي معارف بلادنا من وادي النيل وبلاد مابين النهرين .

ولقد ظهر باحصاء المصطلحات الفنية في طب العين (اسماء الاعراض واسماء الامراض) . ان اجدادنا في مصر القديمة وفي العراق القديم ذكروا في وثائقهم الطبية التي وصلت الينا مايقارب الثلاثين مصطلحا ، واذا كان عهد هذه المدونات الطبية يعود الى القرن السادس عشر قبل الميلاد ، فان مصدرها الحقيقي هو الالفان الرابع والثالث قبل الميلاد .

ونظرا لندرة الوثائق المتوفرة لنا عن هذه الحقيقة القديمة ، فانه يتعذر علينا ان نتابع عملية تطور المعرفة الطبية في هذه الفترة من حياة شعبنا .

الا اننا نعرف — في حدود ماتملك من وثائق — ان ابقراط (الذي عاش بعد الف عام من تاريخ احداث هذه الوثائق الشرقية) لم يذكر من المصطلحات الا العدد نفسه ، وان كان تصنيفه لها جاء اكثر تقدما .

واذا كانت بلادنا ماتزال تحفل باسرار حضارتها القديمة ، واذا كانت البعثات الاثرية تكتشف فيها بين الحين والاخر كنوزا من الحضارة والعلم ، كوثائق المكتبات القديمة على الالواح الاجرية ، او اوراق البردي المدفونة في القبور ، فلعل المستقبل يعطينا المزيد من المعلومات ، بحيث تصبح الكتابة في هذا الحقل اكثر غنى واكثر دقة .

ولم يكن تطور الحضارة في عصور التاريخ الغابرة وقفا على مكان دون مكان اخر من العالم القديم . فقد كان للصين او للهند مثلا حضارة عريقة . ولانريد في هذا المقام التعرض الى اكثر من مجرد الاشارة الى هذا ، احتراما للعقل البشري الذي لم يكن قاصرا عن التفكير والملاحظة العلمية في اي مكان واي زمان . الا اننا يجب ان نقول مادمنا قد اعطينا مثلا عن المصطلحات .. العينية الفنية : ان طب العين في الهند مثلا في حدود بداية القرن الاول الميلادي كان متطورا جدا .

واذا كان عدد هذه المصطلحات يعطي فكرة مقبولة عن مدى هذاالتطور باعتباره دليلا على دقة الوصف والملاحظة ، وباعتباره مقياسا لارتقاء علم التشخيص ، فانه من المناسب ان نذكر ان عدد هذه المصطلحات عند سلزوس اليوناني (الذي عاش سنة ٢٨ م) لم يتجاوز الثلاثين مصطلحا ، بينما عرف الهنود في نفس العصر حوالي الثمانين مصطلحا .

١ ــ نص طبي من مصر القديمة ــ مكتوب على البردي .


أجدادنا العرب

ان شظف العيش في صحراء وبادية جزيرة العرب دفع السكان الى التنقل طلبا للماء والكلأ ، واستقر بعض هؤلاء العرب على تخوم الجزيرة، وعلى سيف البادية ، متصلين بالحضارات التي تحيط بجزيرتهم ، بينما وصل البعض الى مواطن هذه الحضارات ، فذابو فيها حينا ، واذابوها فيهم حينا آخر .

وبرزت هذه الظاهرة منذ اقدم العصور ، فاستقرت موجات من عرب الجزيرة في بلاد ما بين النهرين وفي الجزيرة الفراتية وفي بلاد الشام .

اتيح لهؤلاء البدو ان ينصهروا في المجتمع الذي وصلوا اليه ، والذي كان مجتمعا مستقرا ، وتطورت هذه المجتمعات المستقرة الى مجتمعات اكثر تحضرا .

واستمرت ظاهرة قدوم بدو الجزيرة العربية الى هذه المجتمعات المتقدمة ، فتاثروا بها وتاثرت بهم . وازدادت هذه المجتمعات تقدما بمرور الزمن ، واصبحت بالتالي اكثر قدرة على اجتذاب المزيد من الهجرات البدوية اليها بقصد الاستقرار فيهـا ، والذوبان في سكانها المتمدنين ، او بقصد الغزو والعودة الى البادية ، او بقصد الاستقرار في جوار هذه الحضارات والاستفادة من مميزات الجيرة هذه .

وتكررت هذه الظاهره عبر مئات السنين فكان من نتيجة هذه العملية السكانية ان المجتمع السومري الذي كان يتمتع بقسط عال من الحضارة، والذي لم يكن اصل سكانه في الازمنـة الاقدم من بدو جزيرة العرب هؤلاء ، بل كان العرب فيه هم القادمون من الجنوب دوما ، هذا المجتمع

الذي ازدهر في الالف الرابع قبل الميلاد لم يلبث ان اصبح اكاديا في الالف الثالث ، دون أن تطرأ على مميزاته الحضارية تغيرات هامة . وهـذا المجتمع الاكادي ، هو مجتمع يغلب عليه الطابع « العربي » طابع الاقوام الآتية من جزيرة العرب .

وتكررت هذه العملية ، فاذا ببلاد ما بين النهرين ، التي كانت اكادية في الالف الثالث ، تصبح اشورية ، أو بابلية في الالف الثاني ، اي تتغير فيها نسبة الاقوام الآتية من جزيرة العرب ، وتتغير فيها مراكز القوى .

ولقد سمى المؤرخون هؤلاء الاكاديين والآشوريين والبابليين بالساميين لانهم من « نسل سام » ، اي لانهم من جزيرة العرب ، التي تكاثر فيهـا ابنـاء سام ، ولاحظ هؤلاء المؤرخون الصلة الحضارية واللغوية التي تربط هؤلاء الاقوام ، كما لاحظوا استمرار المميزات الرئيسية لهـذا المجتمع المتمدن في بلاد ما بين النهرين منذ العهد السومري اي منذ العهد قبل السامي .

واذا اتيح لهـذه الهجرات الكثيفة ان تسيطر ، فتعطي لحضارات ما بين النهرين اسمها : (الاكاديين .. الآشوريين .. البابليين ..) فرب هجرة أخرى من قبائل بدوية جاءت من الجنوب الى ارض مابين النهرين، فذابت في هذا المجتمع الغني بالسكان ، ولم يبق لها اثر . ورب قبائل غيرها جاءت غازية وعادت . ورب غاز ظفر بغزو ، ورب غاز هلك دونه .

واذا كانت حضارة وادي الرافدين العريقة قد اجتذبت اقواما من جزيرة العرب ، فلابد انها اجتذبت ايضا اقواما من سكان البلاد الجبلية في الشمال والشرق ، ولكن العنصر المسيطر دائما كان عنصر التقدم الحضاري ، وان الاقوام التي جاءت الى هـذا المجتمع ، جاءت لتذوب من حيث النتيجة ، حتى المنتصر (المتخلف حضاريا) كان يذوب في هذا المجتمع في العنصر المهزوم ، المتفوق حضاريـا . واذا كان البقاء دائما

للاصلح ، فان البقاء هنا عسكريا كان للاقوى ، وحضاريا ، كان للحضارة الاعرق .

واذا كان التطور التاريخي قد ادى الى انتصار العنصر العربي ، فسميت الحضارة باسمه في بلاد مابين النهرين ، منذ العهد الاكادي ، فان هذا التطور لم يسمح بانتصار العنصر العربي ، الآتي من الجزيرة الى وادي النيل ، بل ظل العنصر «المصري القديم» هو العنصر المسيطر ، وان اصبحت لغة المصريين القدماء متأثرة اشد التأثر بلغات جزيرة العرب . ففي دراسة لهذه اللغة ، مع مقارنة لها بلغات الاقوام العربية (السامية) ظهر ان هذا التأثير ظل يزداد قرنا بعد قرن .. مشيرا ليس فقط الى صلة المصريين القدماء بالشام والعراق ، بل مشيرا ايضا الى تسرب هؤلاء البدو من الجزيرة الى وادي النيل الغني المتحضر المستقر .

اما في بلاد الشام فان العنصر العربي سيطر ايضا منذ اقدم العصور ، وظهرت حضارة الكنعانيين والاراميين المتطورة في بلاد الشام ، والمتصلة ببلاد النهرين من جهة وبوادي النيل من جهة اخرى ، وببادية العرب من الجهة الثالثة .

وظلت هذه الظاهرة الاجتماعية مستمرة عبر القرون .

واذا كانت الدراسات اللغوية المقارنة تكشف لنا بعض المفاجآت ، فان احدى هذه الدراسات اظهرت شبها عجيبا بين لغات جزيرة العرب الجنوبية ، وبين لغات سكان بلاد القبائل في شمال افريقيا ، مشيرة الى ان ظاهرة انتقال السكان البدو من قلب الجزيرة باتجاه سيناء ومصر ، قد استمرت باتجاه شمال افريقيا ، اما لان هؤلاء البدو آثروا العيش في صحاري شمال افريقيا والتي تشبه في مناخها بلادهم ، او لانهم اجبروا على الحركة غربا .

وبكلمة اوضح يمكن لنا أن نتصور حادثة حركة سكانية ، من الشرق الى الغرب في شمال افريقيا ، بدليل هذه الظواهر اللغوية وهذا التشابه في العقلية ، تعبر عنه قواعد اللغة ، مثلما تعبر عنه الالفاظ .

هذه الحركة السكانية جاءت اقدم بكثير ، ولكن في نفس اتجاه القبائل البدوية التي جاءت مع الفتح الاسلامي او قبائل بني هلال متاخرا .

اي أن حركة السكان البدو من قلب الجزيرة ، كانت تسير باتجاه الشمال الشرقي الى بلاد الرافدين ، وباتجاه الشمال الى بلاد الشام ، وباتجاه الشمال الغربي الى شمال افريقيا .

هذه الحركة ، التي انتبه اليها العلماء منذ القديم ، فشبهوا ــ من اجلها ــ جزيرة العرب بالكأس التي تمتلىء بالماء ثم تفيض ..

هــذه الحركة ، كان من شأنها أنها قربت أوجه الشبه بين هــذه البلدان الشاسعة الامتداد حضاريا ولغويا ، فسادها من حيث النتيجة شيء من التجانس في تقاليد السكان وثقافتهم وحضارتهم وعقليتهم .

هــذا التجانس ، هو الذي جعــل الفتوحات الفارسية واليونانية قصيرة العمر في هذه البلاد التي اتسمت بسمات خاصة ومتشابهة، وهو الذي جعل العنصر الفارسي او العنصر اليوناني غريبا عن مجتمع هــذه البلاد ، التي لم يشأ أحد من المؤرخين الاجانب أن يسميها باسم أوضح .

وكان اكثر ما تكرم به المؤرخون ان سموا هذه الحضارات «بالسامية» ولم « يغامر » اي واحد منهم فيسميها « بالعربية » . ولا ادري لماذا لم يمض هذا الاتجاه الى حد تسمية جزيرة العرب « بالجزيرة السامية »؟!

ولقد ظلت هــذه البلاد « العربية » متقدمة حضاريا ــ منذ الالف الرابع قبل الميلاد ــ ولم تذب فيها الحضارة رغــم كل تقلبات الزمن .

رغم الحروب ، والاوبئة ، والكوارث التي حلت بها ، كما تحل بأي بقعة اخرى من بقاع العالم .

ولعل هذا التقدم هو الذي اعطى للهلينية وصفا جديدا ، ومستوى جديدا حينما وصل الاغريق الى بلادنا ، فظهر مااصطلح عليه المؤرخون حديثا باسم الهيلنستيه . هذا التقدم الذي عبر عنه بعض المؤرخون دون « عقدة » فقالوا « المؤثرات الشرقية » على الحضارة الهيلينية . .

ولقد ظلت هذه الحال سائدة في بلادنا الى أن جاء الاسلام ، وانتصرت اللغة العربية ، لغة القرآن الكريم ، ولغـة الدولة التي سيطرت على بلاد العرب ، والتي حررتها نهائيا من فارس وبيزنطة .

وعلى هذا فاننا نفهم ان صلة سكان جزيرة العرب باخوتهم في الشمال والشمال الشرقي والشمال الغربي لم تنقطع منذ اقدم العصور .

وعلى هذا فاننا نفهم ايضا كيف ولماذا استقرت بعض الاقوام العربية قبل الاسلام ، في الحيرة ، وتدمر ، والبتراء ، وبلاد غسان ، واقامت مجتمعات لها صفات الدول المتقدمة ، كالفرس والروم ، من جهة ، ولها صفات بدو قلب الجزيرة العربية من جهة اخرى .

ومن هنا فان دور هذه الدويلات العربيةو تأثيرها على بدو قلب الجزيرة لا يمكن ان يهمل أو يتجاهل حين الكتابة في تاريخ العلم عند العرب .

وكذلك فقد اصبح واضحا لمؤرخي العلوم ـ مثل غيرهم من المؤرخين ـ أن ما اصطلح على تسميته « بعصر الجاهلية » لا يمكن ان يستقيم فهمه الا بالمعنى الذي وردت فيه الكلمة في التنزيل العزيز ، وان كلمـة « جاهلية » لغة ، يجب أن تفهم على انها ـ ضد الحلم ـ وليس ـ ضد العلم ـ . .

يحق لنا ، بل يجب علينا ، ان نتصور بدوي الصحراء هذا الذي املت عليه بيئته ان يعتمد على نفسه في حله وترحاله ـ جيلا بعد جيل ـ ان نتصوره فارسا جاهزا للدفاع عن نفسه دائما ، فالبقاء للأقوى ، متقشفا حيث ان البيئة تبخل عليه بالطعام والشراب ، شاعرا يجد الوقت الكافي لان يحلم وان يفكر وفوق ذلك وقبل ذلك انسانا ذكيا .

لذلك تكلم وكتب الكثيرون عن (ذكاء البدوي) .

والصحراء هي التي شحذت هذا الذكاء وشذبته .

فالبدوي مضطر الى التنقل اطراف الليل وآناء النهار . فهو ملزم بالاعتماد على معرفة حركات الكواكب ليضبط الوقت ، ويستدل بها على الاتجاه .

وهو وحيد في الطريق غالبا ، او مع كوكبة قليلة العدد من رفاقه وعليه أن يعتمد على نفسه في اعمال الاسعاف الطبي والجراحي .

وهو مضطر الى التعرف على الخصائص الغذائية والدوائية لاعشاب الصحراء ، التي كثيرا ما كان ملزما عليه أن يتعامل معها .

وهو قبل هذا كله ـ بسبب توحده ـ ملزم ايضا باتخاذ القرارات السريعة والحاسمة التي لاتعرف التردد ، فالحياة في الصحراء لاتتحمل ترددا ولا ضعفا .

ان هذا التاثير من البيئة على ذهن سكان الصحراء وعلى سلوكهم ، كوّن عقلية خاصة بهم ، عقلية تجيد الملاحظة ، والمشاهدة ، وتعرف كيف تخزن المعلومات ، عقلية من حقها أن تنعت بأنها اجادت قسطا من المراقبة العلمية ، ونجم عن اسلوب الحياة هذا اضافة الى ذلك شيوع وانتشار للمعرفة بين معظم الناس ، واحترام للعقل والفكر .

كما نجم عنه ظهور شعور عال من الاحساس بالكرامة عند الفرد ، زادته عنفا ، اخلاق البادية وتقاليد القبيلة، وحياة الغزو والحرب، فتطور مجتمع البادية في غير اتجـاه تطور المجتمعات المستقرة ، مجتمعات الطبقات المستغلة ، وظهرت في هذا المجتمع ميزات خاصة ، فكل فرد في مجتمع البدو كان محاربا كريما ، يتمتع بمستوى عال من الانفة ، لايقبل الضيم ، ولا يرضى بالعار ، ويموت دون شرفه او كرامته او مثله .

لذلك تبلورت في المجتمع البدوي في زمن الجاهلية اخلاق سامية ، ومثل عليا ، ظلت هي الاساس في التعامل بين الناس ، ونتعارف عليها اليوم بانها « الاخلاق العربية » . هذه الاخلاق التي تحتم على البدوي ان يقري الضيف ، ويحمي الضعيف ، ويرعى الذمام ، وان يموت من اجـل مبادئــه .

ولقد تطور مجتمع البدو في قلب شبه الجزيرة متاخرا عن تطورمجتمع اليمن والحيرة وغسان ، فجاء تطور مكة ويثرب متأخرا ، وفي الجاهلية ظهرت التجارة والاسواق وعرف الناس طرقا للقوافل تصلهم بجيرانهم .

كل ذلك يشير الى ان هؤلاء العرب (البدو) الذين يتحدث عنهم المؤرخون حينما يؤرخون للحياة العقلية والعلمية ، او حينما يؤرخون للعلوم العربية ـ وخاصة الطب ـ لم يكونوا معزولين عن العالم المتحضر المحيط بهم . ولم يكونوا انفسهم قليلي التطور الذهني . بل ان شيوع المعرفة العلمية عندهم ، ربما كان احسن من بعض طبقات المجتمع المستقر التي تسيطر عليه عقلية الكهانة التي يكون فيها العلم حكرا على فئة مختارة من الطبقات الارقى .

والدليل على ذلك هو تطور اللغة العربية، وغناها بالالفاظ المترادفة التي تشير الى ثروة ذهنية ، والى نشاط في المعرفة العلمية ، مما يبرهن على أن عقل العربي في الجاهلية حيث تطورت اللغة العربية ، لم يكن عاجزا عن ادراك الفروق الدقيقة بين المعاني ، وبالتالي عبر عن هذه الفروق ، بوفرة المترادفات ، وغنى التعابير ، ومرونة اللغة .

فغنى مفردات اللغة العربية ، وتطور قواعدها ، هو انعكاس واضح لارتقاء المعرفة ، ونشاط الذهن ، كل هذا حدث في عصر الجاهليـة ، فطبع اللغة العربية منذ البداية بطابع الغنى والتنوع والقدرة على التعبير والابداع ، والجاهزية للتعبير عن شتى المعاني الجديدة .

لذلك فقد وجدت الديانتان اليهودية والمسيحية ـ حينما وصلتا الى بلاد العرب ـ لغة قادرة على التعبير عن المعاني الجديدة التي جاءتا بها ، بل ان الصراع المذهبي . وجد في هـذه اللغة ايضا التعابير التي احتاجها .

ثم جاء الاسلام ، فوسعت هـذه اللغة المتطورة كل المعاني التي جاء بهـا .

ثم جاء عصر ترجمة العلوم من لغة الاغريق ، ومن اللغة الاراميـة أو السوريّة ، (التي يسميها المؤرخون بالسريانية) الى اللغة العربية ، فوجد التراجم في هذه اللغة قدرة وطواعية عجيبتين لاستيعاب مفردات شتى العلوم .

واذا ظهر بين التراجمة من عجز عن القيام بمهتمه ، فلانه لم يكن متمكنا من العربية .

وجاء عصر الازدهار ، وظهرت في العربية معجمات وقواميس اتسعت لشتى العلوم ، ثم ظهرت المؤلفات العربية التي تلقفها العالم ، فترجمها بدوره الى لغاته ، واستفاد منها .

وكانت دولة الاسلام ، دولة المساواة بين العربي والاعجمي ، دولة طلب العلم من المهد الى اللحد ، أيا كان مصدره .

لذلك نفهم كيف جاء علماء هذه الدولة من شتى الاجناس والعروق ، ومن مختلف الديانات ، دون عقد ، ودون تمييز .

وهذه ظاهرة « سجلها » معظم المؤرخين ، وان كان الذين فهموها ظل عددهم محدودا ، لانهم لـم يفهموا روح الاسلام الحقيقية ، ولـم يفهموا التكوين الحضاري للامة العربية . وظل مفهوم الدين بالنسبـة اليهم هو مفهوم « الدين » كما عرفوه في اوربا ، وظل مفهوم القومية عندهم هو مفهوم « القومية » كما عرفوه في اوروبا ، ولم يتمتع هؤلاء المؤرخون الذين ربما كان بعضهم قد احب العرب ، واحب المسلمين ، لم يتمتع بفهم هذه الظاهرة التاريخية ، التي ربما انفردت بها امتنا بين الامـم .

لذلك فنحن العرب ، نحس باننا ورثة كل هذه الحضارات التي ازدهرت علي ارضنا ، بدءا من سومر في أقصى الشرق ، ومرورا بمصر القديمة ، الى اقصى جبال الاطلس ، وصحراء افريقيا .

ونحس كذلك بان هؤلاء جميعا هم أجدادنا .

وهذا لا يتناقض مع احساسنا العارم بالعروبة ، بل يغذيه ويغنيه ، ويعطيه معنى انسانيا رفيعا .

وعلى هذا فان امحوتب الطبيب الذي اشتهر في مصر القديمة ، حتى الهته الناس بعد وفاته هو جدنا ، تماما كما هو حنين بـن اسحـق « البدوي » الذي جاء من الحيرة او يوحنا بن ماسويه « السرياني » الذي جاء من جند يسابور ، أو الرازي الذي جاء من ايران ، وماسرجويه البصري اليهودي هو جدنا أيضا ، مثلما علي بن عيسى كحال بغداد النصراني ، هـو جدنا أيضا ، يقفان على نفس المستوى مثلهما مثـل ثابت بن قره الصابئي او ابن النفيس الفقيه المسلم .

هذا الاحساس ، يعطي لقوميتنا العربية ، طعما خاصا ، انسانيا ، لا يكاد يحس به ولا يفهمه كثير من المؤرخين الاجانب الذين حاولوا ان يؤرخوا للعلوم العربية .

هذا الاحساس هو ثمرة تربية سامية،وتعاليم نبيلة،جاء بها الاسلام.

ولقد اردت في هـذه المقدمة السريعـة ان أعرض فهمي المتواضع لمعنى « عرب » ولمعنى « العلوم العربية » « والطب العربي » .

واذا اراد بعض المؤرخين ان يقصروا البحث على المرحلة التي جاءت بعد ظهور الاسلام ، فيسمونها بالمرحلة العربية أو الاسلامية تمييزاً لها عن المراحل التي سبقتها ، فان هذا مقبول من وجهة نظر واحدة ، هي حق الدارس في تقسيم البحث الى اقسام لتسهيل الدراسة ، أما تاريخنا فمتواصل مثل تاريخ غيرنا ، والتاريخ لا يعرف الانقطاع .

وانا اسمي هذه المرحلة اذا شئتم ، المرحلة الاسلامية من التاريخ العربي ، اي المرحلة التي بدأت بظهور الاسلام .

واذا كان الاسلام قد جاء من السماء ، فانه جاء على قوم موجودين قبل الرسالة اسمهم العرب وبلسان عربي مبين ، هؤلاء القوم يبدأ تاريخهم بطبيعة الحال قبل الاسلام بآلاف السنين .

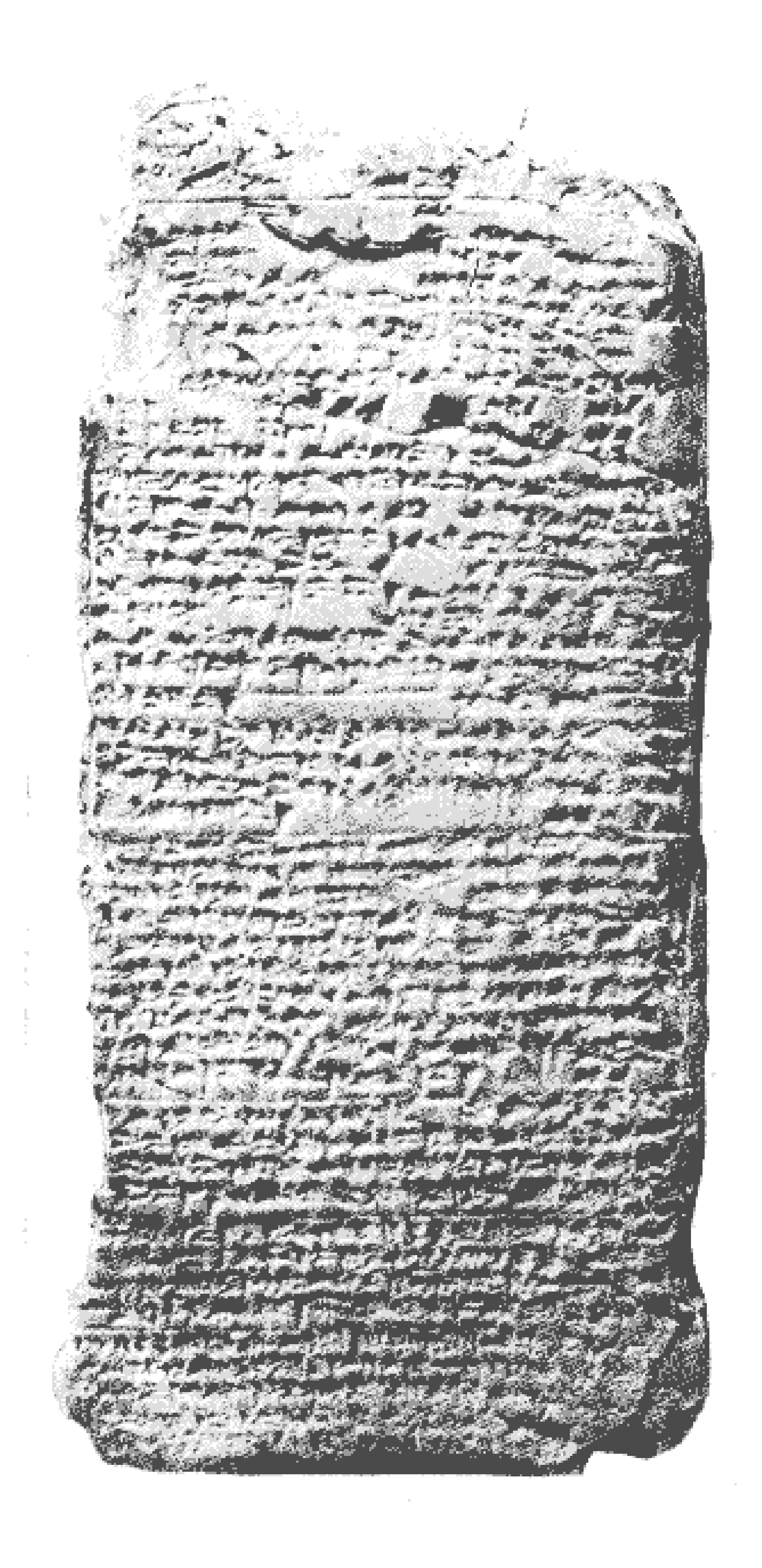
ولم يأت الاسلام ليميزهم عن غيرهم بل ساوى بينهم ، وبين سائر الشعوب ، على الرغم من ان العرب قد كانوا اداة انتشار الاسلام ، واداة انتصاره .

واذا كانت بلادنا مقسمة اداريا قبل مجيء الاسلام ، فيها عديد من الدول وتخضع لنفوذ عدد من الامبراطوريات ، وجاء الاسلام فوحدها فانه جاء ليوحدها الى الابد ، وليس لحقبة من حقب الدهر، وجاء ليضمن لمواطني هذه البلاد المساواة والحرية والكرامة .

لذلك لا عجب اذا ذكرت في هذا الكتاب ، اجدادنا اطباء العين ، بادئا بأقدمهم فانني أحس بأننا ــ نحن العرب ــ ورثة الحضارة والعلم اللذين بنى صرحيهما هؤلاء الاجداد منذ اقدم العصور .

فاذا لم نكن نحن ــ العرب ــ ورثة مصر القديمة ، وبلاد الرافدين القديمة ، فمن يكون الوريث ؟.

ولا عجب أيضا أن يكون من جملة أجدادنا : الطبري ، والفارسي ، والبدوي ، والسرياني ، وكذلك الصابئي، واليهودي والمسيحي، والمسلم .



٢ ـ نصّ طبي من بلاد الرافدين ـ مكتوب على الآجر .


أعلام أطباء العيون العرب
قبل الإسلام

اطباء العين في مصر القديمة

قام اجدادنا في مصر بانجاز عظيم في تاريخ تطور الطب ، فان طب العين قد انفصل في مصر القديمة عن الطب ، واصبح اختصاصا مستقلا .

وكان طبيب العيون في المجتمع المصري شخصية محترمة تتمتع بسمعة ونفوذ الطبيب الباطني ، وظلت هذه المهنة المتخصصة محترمة منذ ذلك الوقت عبر العصور ، رغم ان كلمة (طبيب عيون) في العصور الاغريقية ، والرومانية ، والبيزنطية ، لم يكن لها نفس الوقع الذي كان لكلمة (الطبيب) ، فان طبيب العيون اتى في المجتمع الطبي من حيث تسلسل الاهمية في الدرجة الاخيرة .

ولقد وصل الينا الكثير من المعلومات التي عرفها اطباء العيون في العصر المصري القديم ، يوم ظهرت الى النور البرديات المكتوبة في الالف الثاني قبل الميلاد ، والتي كانت بدورها منقولة عن برديات اقدم بالف عام أو يزيد .

ولقد وصف المصريون القدماء الكثير من امراض العين ، وعرفوا العديد من الاعشاب للمداواة العينية ، كما استعملوا أدوية من اصل معدني او حيواني ، وعرفوا بعض الطرق الجراحية .

ولقد استفاد الاغريق كثيرا من الطب المصري القديم بشهادة المؤرخين الاغريق القدامى ، الذين اتيح لهم ان يعرفوا مصر .

اطباء بلاد ما بين النهرين

وفي اقصى شرق وطننا ظهر التخصص أيضا ، وفي حقبة مبكرة من الزمن .

الا ان شيئا آخر اهدته بلاد ما بين النهرين الى البشرية في مسارها الطويل من اجل التقدم ، والى تطور الطب عموما ، وهو ظهور القوانين التي تنظم المهن الطبية ، والتي تحدد اجور الاطباء واتعابهم عن المداواة ، وعن العمليات الجراحية ، والتي تفرض عقوبة صارمة على الطبيب الذي يعالج مرضا لا يستطيع معالجته فيؤدي تدخله الى ضياع البصر .

وقد تكون هذه القوانين صارمة ، وربما قاسية أو مجحفة بحق الطبيب . ولكنها كانت تشكل رادعا حقيقيا ضد الادعياء الذين يزعمون انهم قادرون على ممارسة المهمة الطبية .

ولقد ظل هؤلاء الجهلة الادعياء عبئا على الاطباء والمرضى ، الى ان جاء عهد التدريس الطبي ، وعهد الامتحان الطبي ، حيث اصبحت الدولة هي المسؤولة عن منح الاجازة الطبية ، والسماح بالممارسة للاطباء وللاخصائيين منهم ، ولكن هذه المرحلة جاءت متاخرة في القرن العاشر الميلادي وفي بغداد على وجه التحديد .

الا أن قانون العقوبات ، كان الوسيلة الوحيدة للحد من اذى هؤلاء « الدجالين » الذين يزعمون قدرتهم على شفاء الناس .

وكان لبلاد ما بين النهرين شرف ظهور هذا القانون فيها ، وقد جاءت نصوص هذا القانون في شريعة حمورابي ، الا اننا نعرف ان هذه القوانين التي صاغها حمورابي ، انما هي نتيجة تطور طويل فهي الحلقة الاخيرة في سلسلة قوانين اكثر بدائية .

زينب طبيبة بني اود

لقد اصبح من الواضح لنا ان العرب في جزيرتهم ، ايام الجاهلية وقبل ذلك كانوا على درجة معينة من الاطلاع على الفنون الطبية ، ولعل الكشوف الحديثة في اليمن ، وساحل البحرين ، تمطينا وثائق جديدة تدعم هذا الرأي .

وتعود هذه المعرفة الطبية المحدودة الى مصدرين : اولهما تطور المعرفة العلمية الذاتية عند عرب الجزيرة . وثانيهما الصلات بين بلاد العرب وبين الحضارات التي قامت في مصر والعراق والشام وفارس .

فقد ذكر لنا التاريخ اسم طبيب في العصر الجاهلي درس في جنديسابور ، كما حفظ لنا اسم طبيب آخر درس في الاسكندرية في آواخر عصر الجاهلية ، وابان ظهور الاسلام ، ولم يبخل علينا التاريخ ايضا بأسماء الكثير من الاطباء الذين عاشوا في صحراء الجزيرة العربية او في باديتها او نجودها ومارسوا الطب ، وظل ذكرهم خالدا في الشعر او القصص العربي منذ العهد الجاهلي .

ولكن ، لابد ان اسماء الجنود المجهولين الذين سبقوا هؤلاء قد ضاعت ، اطباء اليمن المتحضرة ، واطباء الانباط ، وساحل البحرين ، وتدمر .

وقد حفظ لنا التاريخ فيما حفظ اسم طبيبة عيون ذاع صيتها ، وعمت شهرتها ، وامّها الناس من اقصى انحاء الجزيرة لمداواة عيونهم ، هي زينب طبيبة بني اود التي عاشت قبيل الاسلام . فحفظ الشعر لنا اسمها لحسن الحظ .


تراجم الأطباء العرب

ان مصدرنا الرئيسي لدراسة حياة ومؤلفات الاطباء العرب في العصر الاسلامي هي كتب التراجم .

واعظم هذه الكتب واوفاها هو كتاب (عيون الانباء في طبقات الاطباء) الذي كتبه ابن ابي اصيبعة في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) .

ولكن اقدم هذه الكتب جاء من القرن الثالث الهجري ، (٩ الميلادي) فان اسحق بن حنين ، هو الذي الف اول كتاب عربي حول تراجم الاطباء (تاريخ الاطباء والحكماء) .

وابن ابي اصيبعة كان طبيب عيون في صلخد ، دخل التاريخ من اوسع ابوابه بمؤلفه هذا ، الذي ما يزال مصدرا رئيسيا لدارسي تاريخ الطب ، وهو يبدأ بذكر الاطباء من اقدم العصور ، وينتهي بالترجمة لاطباء عصره وزملائه .

وهذا الاسلوب وضعه اسحق بن حنين ، واسحق هذا هو أحد ابناء حنين بن اسحق الترجمان ، وان كان الابن لم يصل الى مرتبة ابيه في الطب او الترجمة الا انه كان متميزا بميله الى (تاريخ الطب) ، فهو اول مؤرخ وضع كتابا متخصصا لتراجم الاطباء ، لذلك حق لنا ان نسميه (رائد تاريخ الطب) في الاسلام .

ويؤخذ على هذا الكتاب انه لم يذكر الكثيرين من الاطباء العرب بعد الاسلام ، ويبدو انه اكتفى بالقدر الذي ورد في كتاب يوحنا النحوي ، الذي عاش في الاسكندرية في القرن السادس الميلادي ، ونحن لا نعرف حتى الآن لماذا فعل اسحق هذا ، فانه على الرغم من اعتماده الواضح على كتاب يحيى (يوحنا) النحوي ، كان قادرا ان يترجم

لبعض اهم الاطباء ، كحنين والده ، او يوحنا بن ماسويه ، أستاذ والده ، ولعل الدراسات في تاريخ الطب تفسر لنا في المستقبل اسباب احجام اسحق هذا .

وبطبيعة الحال فان مؤرخي القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) عرضوا في كتبهم بعض قصص وسير الاطباء ، الا ان اسحق بن حنين كان السباق اذ افرد كتابا خاصا لهذا العلم الجديد .

ويمكن لنا ان نعود الى ما كتبه الطبري (ق ٣ هـ = ٩ م) أو اليعقوبي (ق ٣ هـ = ٩ م) أو المسعودي (ق ٣ ـ ٤ هـ = ٩ ـ ١٠م) للبحث عن مادة اولية للدراسة هذه .

ولكن الامر لا يحتاج ـ بالنسبة الى القارىء العادي ـ الى هذا العناء ، لان القرن الرابع الهجري جاء بكتابين عظيمين في هذا الموضوع ، فابن النديم وضع كتاب (الفهرست) في نفس الوقت تقريبا الذي الف فيه ابن جلجل كتابه (طبقات الاطباء الحكماء) (حوالي ٣٧٧ هـ) . وواضح ان كتاب ابن جلجل متخصص ، بينما كتاب ابن النديم كتاب عام في التراجم .

وقد قيض الله لكتاب الفهرست مستشرقا جليلا هو الاستاذ فلوغل الالماني ، الذي حقق الكتاب وطبعه سنة ١٨٧٢ في لايبزغ (وان كانت هذه الطبعة ناقصة) ، بينما ظل كتاب ابن جلجل حتى سنة ١٩٥٥ منتظرا حظه ، الى ان جاء الاستاذ فؤاد سيد (امين المخطوطات بدار الكتب المصرية آنذاك) ، فحققه وعلق عليه وطبعه .

وابن جلجل هذا عاش في الاندلس وكتب كتابه بطبيعة الحال دون ان يطلع على كتاب الفهرست الذي كتب في المشرق في العام نفسه تقريبا ، وهو في كتابه هذا لم يكن المجلي بين الاندلسيين فحسب في هذا الحقل من حقول تاريخ العلم ، بل انفرد بان اطلع على بعض المصادر اللاتينية المتوفرة في الاندلس والتي لم تكن معروفة في الشرق . ففاق مؤلفي الشرق باطلاعه على هذه المصادر وحده . وكانت المؤلفات اليونانية (وهي التي ظفر بها المؤلفون الشرقيون) معروفة لديه ايضا .

ومن الجلي اليوم أن المعرفــة العصريــة ، قد تجاوزت كثيرا ما كتبه العرب في القرنين الثالث والرابع الهجريين ، بل والقرن السابع الهجري (ابن ابي اصيبعة) ، فيما يتعلق بالاطباء قبل العصر الاسلامي ، وتكمن قيمة هذه المصادر العربية في انها تعطينا فكرة عن معرفة العرب بالقدماء في ذلك العصر ، وعلى سبيل المثال ، فاننا لا يمكن أن نعتمد على ما ذكره المؤلفون العرب هؤلاء عن **جالينوس** ، بل يجب ان نعود الى احدث المراجع في زمننا هذا .

وهذا لا يضير هذه الكتب ، باي حال من الاحوال ، ذلك ان مقالة تنشر اليوم عن جالينوس مثلا قد تجعل مقالة نشرت في مطلع هذا القرن قديمة ولا يجوز الاعتماد عليها .

واذا كانت كتب التراجم العظيمة التي الفها العرب بدأت بابن النديم ، فانها تطورت ايضا بمجيء ياقوت (في كتابه معجم الادباء) في نهاية القرن السادس ، واوائل القرن السابع الهجري (١٢ ــ ١٣ م) وابن خلكان (في كتابه : وفيات الاعيان) في القرن السابع الهجري (١٣ م) .

والامر نفسه نشاهده في (تاريخ الطب) فقد جاء القفطي في القــرن (٦ ــ ٧ هـ) = (١٢ ــ ١٣ م) ليكتب لنا (اخبار العلمــاء باخبــار الحكماء) وهو كتاب جزيل القدر ، كما جاء ابن ابي اصيبعة في القرن السابع الهجري = (١٣ م) ، ليتوج جهود المؤلفين العرب في كتابه الذائع الصيت (عيون الانباء) .

وابن ابي اصيبعة وصف الاطباء الذين عرفهم من خلال كتبهومصادره وصفا امينا ، وكثيرا ما احتاج الى الاطلاع على كتبهم لكي يتعرف على شخصيتهم ويحكم على مقدرتهم .

اما الاطباء الذين عرفهم ، درس عليهم او زاملهم ، فانه كان في وصفه لهم مؤرخا وعالما نفسيا واديبا ومصورا بديعا لشخصياتهم ، لذلك فان دارسي تاريخ الطب العربي ، لا غنى لهم ابدا عن هذا الكتاب حتى اليوم .

وعلى كتاب ابن ابي اصيبعة هذا اعتمد المستشرق الالمانــي الكبيــر الاستاذ **فيستنفلد في غوتنغن** ، يوم نشر كتابه (تاريخ الاطباء وعلمــاء

الطبيعة العرب) سنة ١٨٤٠ ، فاعطى فكرة للباحثين في تاريخ العلوم عامة وتاريخ الطب خاصة ، عن المستوى الرفيع الذي وصل اليه العرب في الطب بين القرن التاسع والقرن الثالث عشر الميلاديين .

وكتاب فيستنفلد هذا هو اقدم ما كتبه الاوربيون عن الاطباء العرب ومن اكثر الكتب تاثيرا ، اذ لفت انظار الاطباء الى ضرورة دراسة التراث الطبي الذي كتبه العرب .

فلقد ترجمت امهات الكتب الطبية العربية وخاصة كتب التدريس ، الى العبرية واللاتينية ، بدءا من القرن الحادي عشر الميلادي، وظل بعضها الكتاب الرئيسي في كليات الطب الاوروبية حتى القرن السادس عشر او السابع عشر ، واحيانا ، حتى القرن الثامن عشر .

وبعض هذه الكتب الطبية العربية المترجمة ، طواها النسيان رغم اهميتها ، فاهملت او ضاعت ، رغم ان اللغات الاوروبية لم تكن تمتلك كتبا احسن منها ، وبعض هذه الكتب لم يترجم اصلا ، وبعضها ترجم ترجمة رديئة او غير مفهومة ، وبعض هذه الكتب ، ظل يشكل عملا عظيما من نوعه ، لم تتوصل اوروبا الى كتابة مثيل له حتى القرن الثامن عشر او التاسع عشر .

ومع ذلك فان كتاب فيستنفلد نبه العالم الى الكنز الذي لا حدود له من المؤلفات العربية في الطب التي لم تترجم او التي لا يعرف مكانها ، او التي عبثت بها يد الزمن .

وجاء عالم آخر : لوكلر الطبيب الفرنسي الذي اتى مع الجيش الفرنسي الى الجزائر ، وتعرف على الطب العربي ، من الممارسة الشعبية، وفي المخطوطات ، فتحول انتباهه الى تاريخ الطب العربي ، الذي ملك كل جوارحه ، ففرق في مخطوطات دار الكتب الوطنية في باريس . وكتب كتابه العظيم (الطب العربي) الذي نشره قبل اكثر من مائة عام . والذي عد مرجعا هاما لا يستغني عنه لدراسة هذا الجانب من جوانب الثقافة العربية . ومن المؤسف ان قرنا كاملا مر على صدور هذا الكتاب ، الذي لم يفقد قيمته بعد ، وان اصبح غير كاف للدراسة ، واصبحت

بعض المعلومات الواردة فيه قديمة ، وتجاوزها البحث مؤخرا من المؤسف ان هذا الكتاب لم يترجم بعد الى العربية ، ونأمل ان ينتهي الدكتور سلمان قطاية من ترجمته وطبعه .

وكذلك كتب **براون** كتابا اخر عن الطب العربي .

ولكن العمل العظيم الذي لا يشق له غبار في حقل تاريخ الطب العربي هو : العمل الذي قام به **هيرشبرغ** استاذ طب العيون ، جامعة برلين في مطلع هذا القرن ، فان هيرشبرغ أوكل اليه عن جدارة ان يكتب (تاريخ طب العيون) في كتاب عظيم الفه الاساتذة الالمان كان فريدا من نوعه في مطلع القرن العشرين ، ليكون مرجعا لاطباء العين للدراسة هذا الفن ، من جميع جوانبه ، فكان حاويا لتشريح العين ووظائفها والعلوم الاساسية الطبية والحيوية المتعلقة بها وامراض العين وجراحتها ، وجميع العلوم والفنون المشتركة معها . او الضرورية لفهمها . هذا الكتاب هو (كتاب طب العيون) (Handbuch d . Augenheilkunde (Graefe u, Saemisch)

وقام **هيرشبرغ** بكتابة تاريخ هذا الفن الجراحي الذي كان يدرسه في جامعة برلين بادئا بطب العين في مصر القديمة ، ومنتهيا بالقرن التاسع عشر .

وقد تمكن **هيرشبرغ** بفضل معرفته للغات من أن يعرض عددا من كتب طب العين التدريسية عند العرب . وان يترجم بالتعاون مع مستشرقين آخرين المانيين **(ليبيرت ومتفوخ)** Lippert , Mittwoch بعض كتب طب العين العربي الى الالمانية .

وعلى الرغم من كل الدراسات التي جاءت في هذا القرن في حقل تاريخ الطب العربي فان قصب السبق يظل لهيرشبرغ .

فبفضله اصبحت الطريق الى دراسة طب العيون عند العرب ممهدة ، وظلت فنون الطب الاخرى تحتاج الى رائد مثله .

وقد جاء بعد **هيرشبرغ** طبيب العيون الالماني ـ اليهودي ـ **مايرهوف** الذي قضى شطرا من حياته كبيرا في القاهرة ، ذلك انه أحب هذه الدراسات التاريخية من جهة ، ولان النازية كان قد ذر قرنها في المانيا ،

جاء مايرهوف ليكمل طريق **هيرشبرغ** العظيم ، وقد عمل هو بدوره ايضا مع بروفر Prüfer حينا ، ومع الاب سباط حينا اخر ، ومع غيرهما احيانا او عمل منفردا ، فنشر عددا كبيرا من المقالات الرائعة حول طب العيون العربي ، وحول الطب العربي عموما ، ولعل عمله في نشر كتاب حنين بن اسحق هو أضخم اعماله على الاطلاق .

ولكن الدارس العربي الآن في حقل تاريخ الطب عموما اصبح ايسر حظا ، فان كتاب **بروكلمان** (تاريخ الادب العربي G.A.L.) ثم كتاب **سزكين** (تاريخ التراث العربي G.A.S.) جعلا مهمته اسهل من ذي قبل .

اضافة الى المرجعين الهامين الاخرين (قاموس الاعلام للزركلي) (ومعجم المؤلفين) لعمر رضا كحالة .

ولكن احد ابدع ما كتبه العرب في هذا القرن ، في هذا المجال هو كتاب الاستاذ سامي خلف حمارنة (ببلوغرافيا في الطب والصيدلة في الاسلام في العصر الوسيط) .

ولعل عصر اهتمام العرب بتاريخهم قد بدأ . وان اهتمامهم به وقيامهم بالابحاث حوله ليس تقليلا لشأن المستشرقين أو غير العرب وانما من باب القيام بالواجب القومي .

وعلى الرغم من ان التراث والتاريخ والعلم ، وكل هذه الامور ملك للبشرية جمعاء دون اي شك ، فان من واجب الناطقين بالعربية ان ينهضوا للقيام بالمهمة : وهي تحقيق هذا التراث العظيم والتعليق عليه . واجراء الدراسات حوله ، بروح الجدية والتجرد . لوجه العلم وتوخيا للحقيقة وهم اقدر من غيرهم ، ذلك لان هذا التراث مكتوب بلغتهم .

وان ظهور امثال الاب سباط والاب قنواتي والاستاذ خيرالله والاستاذ منتصر والاستاذ طوقان والاستاذ حداد والاستاذ الشطي والاستاذ شحاده والاستاذ قطاية والاستاذ التجاني الماحي وما كتبوه في هذا الحقل ، وما كتبه زملاء لهم اخرون لدليل وبشير على عودة العرب الى الاهتمام بتاريخ الطب في تراث امتهم .

وقد اردت في هذا الفصل ان اعطي امثلة فقط ، فقد كنت مدركا صعوبة حصر اسماء المؤلفين والعلماء والباحثين . ولكن قراء هذا الكتاب ، اذا لم يكتفوا بطرف الخيط هذا ؛ فان بامكانهم العودة الى الكتب المتخصصة ذات الطابع العلمي الجاد .

فمثلا : بن ابي اصيبعة يقف في كتابه عند القرن الثالث عشر الميلادي فمن اراد ان يعرف ماذا حصل بعد هذا العصر . عليه ان يراجع الحاج خليفة أو البغدادي او احمد عيسى بيه . اما اذا كان ملما بغير العربية فالامر يختلف واذا كان متقنا للغة اوروبية او اكثر فان ابواب مكتبات العالم تنفتح امامه ، عشرات المؤلفات ، ومئات المجلات المتخصصة وآلاف المقالات . ومن اراد ان يلج هذا الباب فالطريق امامه اصبح معبدا ، وما اكثر الجامعات والمعاهد التي يسعدها ان تأخذ بيده ، اذا اراد ان يعمل ، ويسرها ان ترشده اذا اراد أن يقرأ .


يوحنا بن ماسويه

حفظت كتب الاقدمين لنا وصفا دقيقا لشخصية هـذا الطبيب ، الاستاذ ، التي لاتقل اعتدادا بذاتها عن أي استاذ في اكاديمية عصرية للطب ، ومع ذلك ورغم القسـوة الظاهـرة احيانـا فـي حديثه مـع تلاميذه ، فانه كان مقربا من الخلفاء العباسيين الذين عاصرهم .

جاء والده الطبيب من جند يسابور التي كانت اعظم مركز للطـب في ذلك العصر ، فيها ازدهر الطب اليوناني ، واغتنى بعناصر هنديـة وفارسية ، بل وبعناصر اقدم ، ذات منشأ بابلي . جاء الى بغداد . عاصمة الدنيا في ذلك الوقت ، وكان يوحنا فتى يوم وصل الى بغداد فقد ولد حوالي ١٦٠ هـ ــ ٧٧٦ م . وتمتع يوحنا بتربية صارمة في وسط علمي وفي بيت محترم ومرموق ، وتعلم الطب مـن والده ثـم خلف والده بعد وفاته واصبح رئيس المستشفى في بغداد ، الذي كان يعمل والده فيه ، كما نال مركزا رفيعا في بلاط الرشيد واصبح طبيبه .

وظل في مركزه المحترم من عصر الرشيد حتى عصر المتوكل ، طبيبا للخليفة العباسي في بغداد اولا ، ثم في سامراء .

ولما كان ابن ماسويه ينحدر مـن اسرة سريانية فانـه لـم يمتلك ناصية اللغة العربية كما كان الامر عند حنين بن اسحق تلميذه ولم يكن كذلك متقنا للغة اليونانية ، ولذلك فان تعريبه للتعابير الطبية الفنية كان معتمدا على الاساس الفارسي أو السرياني ، وليس اليوناني ، ومـع ذلك فان بعض مصادرنا تروي انه قام بالترجمة من اليونانية الى العربية وهو مايبدو لنا مفتقرا الى الدقة .

وتروي المصادر لنا ايضا ، ان يوحنا ابن ماسويه كان يذهب الـى بيزنطة للحصول على كتب الطب والاتيان بها الى بغداد .

وكان غزير الانتاج الطبي عموما ، وكتب في مجال طب العين كتابين هامين : اولهما (دغل العين) وثانيهما (معرفة محنة الكحالين) .

وعلى الرغم من أن ابن ابي اصيبعة يذكر لنا اسماء اثنين واربعين كتابا في الطب الفها ابن ماسويه ، الا اننا نعثر على اقتباسات من كتب اخرى لم يذكر اسمهاابن ابي اصيبعة وقد وردت هذه الاقتباسات في كتاب الرازي العظيم (الحاوي) ، ولقد كان ابن ماسويه قليل الحظ فلم ينل من مؤرخي الطب اهتماما كبيرا لذلك فان الكثير مما روته عنه المصادر مايزال بحاجة الى التدقيق ، فقد روت بعض المصادر انه كان يشرح القردة التي تأتي اليه من مصر ، الا ان دراسة وافية للمعلومات التشريحية في كتبه ماتزال تنتظر من يقوم بها لاثبات او نفي هذه الرواية على اساس المعلومات التي وردت في كتبه في مجال التشريح ومقارنتها بمعلومات الاقدمين لمعرفة ما اذا كانت رواية التشريح هذه صحيحة .

وعلى الرغم من عظمة هذا الاستاذ والمؤلف فان انشغاله بادارة المستشفى وبالتعليم والتأليف ، وصحبته للخلفاء ، تضافرت جميعا ومنعته من أن يعطي وقتا كافيا للممارسة الطبية لذلك فاننا نفتقد في كتبه الملاحظات السريرية الشخصية .

ومع ذلك فان تاريخ الطب يشهد له بفتح عظيم ، فهو اول من وصف (السبل) هذا المرض الذي يظهر بتشكل اوعية دموية على القرنية ، والذي يعود سببه الى التراخوم .

والمؤكد ان المؤلفين الاغريق لم يعرفوا هذا المرض ، نظرا لخلو بلادهم منه فهل ياترى عرف ابن ماسويه هذا المرض ووصفه نتيجة ممارسته الشخصية او انه تعرف عليه من بعض الاطباء الذين اتصل بهم أو تتلمذ عليهم او استفاد منهم ؟ خاصة وان ابن ماسويه يصف عملية جراحية لهذا المرض ، ظلت هذه العملية توصف في كتبطب العين العربية حتى القرن الرابع عشر الميلادي .

وكتاب ابن ماسويه (دغل العين) لم تبق منه الا نسخ نادرة ، مكتوبة

بخط رديء ، تشيع فيها اخطاء لغوية تؤكد ان الناسخ لم يكن جديـرا بنسخ مثل هذا الكتاب العظيم .

ومن الغريب ان بعض الباحثين الكبار في تاريخ الطب العربي مثل مايرهوف ، يعزون ضعف الاسلوب ، وركاكته ، ورداءة اللغـة ، الى المؤلف ، هذا الامر الذي ما كان يجوز لرجل مثل مايرهوف ان يتردد امامه ، فكم اساء النسـاخ الـى اصول الكتـب ، وهـل كـان يعقل ان كتابا يكتب في العصر العباسي الاول ، وفي بلاط الخلفاء ، كـان مـن الممكن ان يظهر الى النور بعربية رديئة ؟

واغلب الظن ان ابن ماسويه اعتمد على الكتب المكتوبة باللغة السريانية كمراجع اساسية لكتابه كما اعتمد عليها في اقتباساته لاراء الاطباء الاغريق مثل ابقراط وجالينوس وايراز ستراتوس واهرن القس .

ومن اهم ميزات هذا الكتاب وجود الاقتباسات العديدة من المصادر الهندية (كنكا) او السريانية (اشليمون) .

وكتاب (دغل العين) هذا هو اقدم كتاب تعليمي في طب العين كتب بالعربية .

وهو اقدم كتاب تعليمي في طب العين مازال البشرية تمتلكه ذلـك ان كتب اليونان المماثلة والسابقة في عصرها لهذا الكتاب ، قد ضاعت كلها فلم يصلنا منها شيء الا من خلال الترجمات او الاقتباسات العربية .

ويتميز اسلوب هـذا الكتاب بحيويـة بارزة تشـير الـى الصلـة القائمة بين الاستاذ المحاضر ، وبين طلبـة الطب ، مما قد يدعونا الى الظن بـان هـذا الكتاب او بعض فصولـه ربما كـان قـد كتبه احـد او بعض طلاب ابن ماسويه .

ويعلق مؤلف الكتاب اهميـة كبرى على استجواب المريض وعلـى تأمله تماما كما نفعل اليوم .

اما المصطلحات الفنية التي يعتمدها الكتاب ، فقـد ترجمها المؤلف عن الفارسية او السريانية ، فجاء تعريبه مختلفا عن تعريب تلميذه حنين

ابن اسحق الذي اعتمد اليونانية مصدرا للترجمة . فبلورة العين او العدسة كما نصطلح اليوم على تسميتها عربها ابن ماسويه قائلا ـ البردية ـ مشبها اياها بحبة البرد .

اما حنين ، فانه عربها قائلا (الرطوبة الجليدية) لانها جسم رطب يشبه الجليد .

وما نسميه اليوم قميصا في العين ونعنى به جزءا من غلاف العين ، قال عنه ابن ماسويه انه (حجاب) بينما قال عنه حنين انه (طبقة) .

وعلى الرغم من ان كتب جالينوس في تشريح العين وغزائرها كانت قد ترجمت الى السريانية قبل عصر يوحنا ابن ماسويه ، فاننا لا نجده في كتابه هذا يتبع تشريح جالينوس للعين .

ومن غير المعقول ان يكون يوحنا بن ماسويه غير عارف بوجود لهذه الترجمات وغير مطلع عليها .

فهل كان ابن ماسويه لا يحفل بتشريح جالينوس ؟ أم ان بعض تلاميذه الذين نفترض انه كتب بعض او كل محاضرات ابن ماسويه هو الذي اهمل التفصيلات التشريحية المأخوذة عن جالينوس واكتفى بالقليل الذي ذكرته المصادر السريانية ؟ .

أما الاعمال الجراحية على العين فان ابن ماسويه يعرضها عرضا موجزا ، مما يرجح ظننا بأن ابن ماسويه لم يمارس الطب ممارسة كافية .

وهذا الكتاب الذي نحن بصدده مختصر ، يحتوي على ٤٧ فصلا حصة علم الفرائز فيهما قليلة وخاصة (نظرية الابصار) ، وهذا يطرح علينا سؤالا اخر عن علاقة ابن ماسويه بالمصادر الاغريقية التي اطنبت في عرضها لنظرية الابصار وتناقض فيها اصحاب النظريات .

اما كتابه الآخر (معرفة محنة الكحالين) فهو كتاب شديد الاهمية ايضا لانه كتب على شكل السؤال والجواب وهو اقدم كتاب عربي طبي الف على هذا الاسلوب ، وهو يختصر كل علم امراض العين ، في عدد

محدد من الاسئلة ، لكي يدرسها طلبة الطب ، وهو يقدم مادة مقتضبة ومكثفة .

وقد اصبح هذا الاسلوب متبعا ومحبوبا من قبل الاساتذة العرب ، فالف حنين كتابا من هذا القبيل سمي (المسائل في العين) وتبعه الرازي وآخرون .

ولم يقتصر هذا النوع من التأليف على طب العين ، بل شاع في مختلف فروع الطب .

وقد اقتبس الكثيرون من كتابي ابن ماسويه هذين ، نذكر منهم الرازي والقمري .




حنين بن اسحق

لا يختلف اثنان أن حنينـا بن اسحق (من احسن رجـال التاريخ خلقا) وهو اضافـة الى ذلك احد عباقرة الترجمـة في تاريخ البشريـة كلهـا .

وقد ألف حنين بن اسحق كتابا طائر الصيت الذي يعتبر اول كتاب تدريسي في طب العين مؤلف على الطريقة العلمية .

وهذا الكتاب له قصة واعادة اكتشافه لها قصة اخرى .

الا ان القصة التي يجب ان نبـدا بها هي قصـة المؤلف ، ومنبتـه في الحيرة .

الحيرة :

فعلى بعد قليل من مدينة النجف العراقية ، وقبل ان تبنى الكوفة ازدهرت مدينة الحيرة مركزا للملوك اللخميين .

واسم هذه المدينة : أصله آرامي ومعناه « المخيم » = «حرتا» لان امراء اللخميين اقاموا هناك مخيماتهم الثابتة في ظل سيادة الفرس .

وقد تطورت المدينة ، ثم جاءتها النصرانية وانتشرت فيها بين عامة السكان ثم تنصر امراؤها انفسهم في آخر الأمر .

ونجد حينما نقرأ تاريخ الكنيسـة الشرقية ذكرا لممثلي نصارى الحيرة في أخبار المجامع الدينية ، وذلك بدءا من مطلع القرن الخامس الميلادي ، وقد بنت هند أم الملك عمرو ديرا في أوائل القرن السـادس ، عـرف فيما بعد باسمها .

وقد اشتهرت الحيرة فيمـا اشتهرت به بقصـورها . كالابلق والخورنق وقصر العدسيين .

وفيها راجت الكتابة بالعربية وانتشرت منها الى انحاء الجزيرة العربية فكان لها فضل في نشوء وتطور الخط العربي .

وقد تجمع فيها عدد من المسيحيين جاءوا من قبائل عربية مختلفة ومن وجهات متعددة ، وسموا انفسهم (بني عباد) اشارة الى انهم (عباد الخالق) ، ومن هؤلاء انحدر أبو زيد حنين بن اسحق ولدا لصيرفي وبائع ادوية واعشاب طبية .

وكان خالد بن الوليد قد اتجه الى الحيرة ، فاستسلمت دون حرب ثم بنيت الكوفة عن بعد ثلاثة اميال الى الشمال منها مما ادى الى تضاؤل شأن الحيرة بعد الاسلام .

وشاء سوء طالع هذه المدينة ان لا يختارها الخلفاء العباسيون عاصمة لهم مما ادى الى اضمحلالها ، واضمحلال الاقليم المحيط بها . ولكنها كانت في القرن التاسع ماتزال عامرة حين ولد فيها في مطلع هذا القرن حنين بن اسحق الذي قيض له ان يكون احد مشاهير الرجال في التاريخ ، واحد اكبر عباقرة البشرية ، في الترجمة .

وقد كان حنين ميالا الى دراسة الطب ودخل في عداد تلامذة الاستاذ الكبير يوحنا بن ماسويه وكان حنين ميالا الى الاكثار من الاسئلة ، ولعل يوحنا قد ضاق ذرعا بأسئلته ذات يوم فلم يكن لطيفا في الرد عليه . وقال له كلاما قلل فيه من شأنه ، باعتبار انه من اسرة غير طبية ، وكأنما صنعة الطب وقف على طبقات معينة في المجتمع ، ولم يحتمل حنين المرهف الحس هذه الاهانة . التي وجهها الاستاذ « المتعجرف » فغادر مجلسه ولم يعد . ودرس لغة الاغريق وجاب انحاء البلاد حتى اتقن هذه اللغة اضافة الى اتقانه للغة السريانية والى مقدرته النادرة في لغته الام (العربية) وقد عرف حنين السريانية ايضا منذ طفولته بفضل نشأته الدينية اذ كان شماسا يلبس « الزنار » .

ولما اتقن حنين هذه اللغات ، واصبح فارسا في هذا الميدان عاد الى موطنه وعمل في الترجمة واشتهر كترجمان ينقل من الاغريقية الى السريانية او الى العربية ومن السريانية الى العربية ؛ فاصلح كثيرا من

ترجمات أسلافه وزملائه التراجمة الذين وقعوا في بعض الاخطاء الناجمة عن ضعفهم في احدى هذه اللغات الثلاثة .

ثم لمع حنين ، واصبح ترجمان الخلفاء ، وطبيبهم وجليسهم . وتعرض الى مجموعة من الدسائس والمؤامرات من حساده وخصومه فلم ينزل الى مستوى المهاترات ، ولم يفقد ايمانه بالله ولم يتنازل عن مبادئه واخلاقه ، فازداد اصحاب الامر ثقة به واعجابا وأصبح رجلا مهيب الجانب يساعده ابن اخته ، حبيش وإبناه ، ومجموعة من تلاميذه في أعمال الترجمة في شتى العلوم ومنها العلوم الطبية .

وترك هؤلاء وعلى راسهم استاذهم حنين دويا في تاريخ العلوم ليس له مثيل في اي زمان واي مكان .

ولقد روى ابن ابي اصيبعة قصة حياة حنين ، وما تعرض له من دسائس وكيف تغلب عليها وذكر قصة تجواله بحثا عن العلم وطلبا لاتقانه اللغات اللازمة لرجل العلم في ذلك العصر ثم كيف عاد الى البصرة لكي يتمكن من فنون اللغة العربية ويتعرف على مجالس لغوييها .

ويحكي لنا صاحب (عيون الانباء) ايضا كيف استقبل هذا الفتى حين عودته ، وكيف وثق به اساتذته ، وكيف عاد يوحنا بن ماسويه الى ملاطفته وكيف تعرف عليه الخلفاء العباسيون من خلال صلته بآل بختيشوع اطباء البلاط العباسي واساتذة جنديسابور الكبار ، ثم كيف اوكلت اليه مهمة العمل في (دار الحكمة) .

ثم يروي مؤرخنا العظيم (ابن ابي اصيبعة) قصص النكبات والشدائد التي حلت به ، وكيف صمد في وجهها بكل ايمان وثقة بالنفس . وكيف ازداد اكبار الخليفة له واحترامه اياه حينما رفض ان يستخدم علمه في سبيل الاذى ، وان يسخر الطب من اجل القتل السياسي للخصوم فأظهر بذلك مستوى من الاخلاق الشخصية والمهنية تميزه بين اطباء الملوك في كل تاريخ الطب .

وكلنا يعرف كيف استخدم معاوية ابن ابي سفيان اطباء البلاط لدس السموم لخصومه السياسيين . فما ازداد حنين في عيونهم الا عظمة وشموخا .

جالينوس وحنين :

لقد اطلع حنين على كتب جالينوس وترجم عددا كبيرا منها وقد لخص ما يزيد على خمسة عشر كتابا من كتبه المتعلقة في طب العين والعلوم التابعة له تلخيصا . بديعا في تسع مقالات ـ كتبها في مدة تزيد على الثلاثين عاما .

وبعض كتب جالينوس هذه مفقودة لا نعرفها الا من خلال كتاب حنين هذا ، وبعض الكتب التي اعتمد عليها جالينوس مفقودة ايضا لا نعرف من محتواها الا ما لخصه حنين .

وقد جمع حنين هذه المقالات ثم اضيفت اليها لاسباب غير مؤكدة بعد ، مقالة عاشرة حول ادوية العين المركبة ويقال ان مقالة اخرى قد اضيفت الى هذا الكتاب تبحث في العمليات الجراحية التي تجرى على العين .

ومهما يكن من امر الكتاب واسباب جمع هذه المقالات ودور حبيش ـ ابن اخت حنين في جمعها أو دعوة خاله الى جمعها فان الكتاب يلخص تلخيصا رائعا كل ماخلفه لنا جالينوس في هذا الحقل فهي تعرف تشريح العين والعصب البصري والدماغ كما تشرح نظرية الابصار وعلم الامراض والاسباب والعلامات وتصنف ايضا ادوية العين المفردة والمركبة .

وقد كان هذا الكتاب واسع التاثير على جميع المؤلفين العرب الذين جاءوا بعد القرن الميلادي التاسع .

فان علي بن عيسى كحال بغداد الشهير ، واحد اعلام الكحالة عند العرب ، وكذلك عمار بن علي الموصلي . الذي استقر آخر امره في مصر ، والذي يعتبر اشهر جراحي العين العرب عبر العصور

بل احد اهم جراحي التاريخ ، كلاهما قد اعتمد اعتمادا واسعا على كتاب حنين هذا ، وكذلك خليفة بن ابي المحاسن الحلبي . وصلاح الدين بن يوسف الحموي اللذين الفا كتابين تدريسيين من اهم ما الفه الكحالون العرب .

ونقل عنه ايضا ابن الاكفاني والشاذلي اللذين عاشا في مصر في القرن الثامن للهجرة (الرابع عشر الميلادي) كما طار صيت الكتاب غربا فوصل الى الاندلس وذكره واقتبس منه الغافقي في القرن السادس الهجري وطار صيته شرقا فاقتبس منه الجراح « ذو اليد الذهبية » ابو روح بن منصور الجرجاني في كتابه الشهير (نور العيون) الذي كتبه بالفارسية والذي يعتبر اول كتاب طبي عيني في الاسلام كتب باللغة الفارسية .

على أن اهم الاقتباسات عن هذا الكتاب هي تلك التي اوردها الرازي في موسوعته (الحاوي) هذه الموسوعة التي لم تر النور الا بعد وفاة صاحبها .

ولقد تميز كتاب حنين هذا على الرغم من عهده المبكر بأنه احتوى على بعض الصور التشريحية الجميلة والملونة والواضحة .

وما زلنا لحسن الحظ نمتلك نسخة في القاهرة .

هيرشبرغ ومايرهوف والبحث عن هذا الكتاب :

حينما كتب **هيرشبرغ** كتبه عن تاريخ طب العيون لم يترك مؤلفا لاتينيا في العصور الوسطى الا وقراه . كما جمع كل ما كان معروفا في ايامه من المخطوطات العربية وعهد بترجمتها الى اثنين من كبار المستشرقين .

وكان من جملة ما قراه هيرشبرغ هو النص اللاتيني المترجم عن العربية للحاوي والذي امتلا بالاقتباسات عن حنين .

كما عثر هيرشبرغ على كتابين لاتينيين مطبوعين ، احدهمــا اسمه (كتاب جالينوس في العيون) من نقــل ديمتريوس . والآخــر اسمه (كتاب قسطنطين الافريقي في العين) ، ويفترض ان يكون ديمتريوس قد ترجــم الكتاب الاول الى اللاتينية مــن لغته الاصيلة كمــا يفتــرض ان يكون قســطنطين الافريقي قد الف الكتاب الثاني .

وبمقارنة الكتابين تبين لهيرشبرغ انهمــا كتاب واحــد على الرغــم من رداءة اللغة وسوء الطباعة في الكتابين .

وقــد تمكن هيرشبرغ من أن يحدد ان كلا الكتابين .. مترجم عن حنين . وذلك بالعودة الى الاقتباسات الموجودة في الحاوي بطبعتهاللاتينية التي لاتقل سقما من حيث الترجمة والطباعة عن مثيلتيها المنحولتين .

ولما كان التراجمة اللاتينيين قد عرفوا بضعف قدرتهم على الترجمة بسبب قلة اتقانهم للعربيــة .. ولما كان الانتحال منتشرا جدا بينهم في العصور الوسطى فقد عرف هيرشبرغ انه امام كتاب حنين مترجما الى اللاتينية مرتين دون الاشارة الى المؤلف .

فمن غير المعقول ان ديمتريوس شاهد كتب جالينوس كلها ، ثــم قراها وترجمها ، فجاءت ترجمته مطابقــة تماما مــع اسلوب حنــين الذي درس هــذه الكتب وهضمها ثم كتبهــا بالعربيــة . على مدى يزيد على الثلاثين عاما .

وعاد هيرشبرغ الى وصف ابن ابي اصيبعة لكتاب حنين ، واستعراضه تسلسلْ الفصول فيه ، فو د تطابقا تاما ممــا أعطى البرهان الســاطــع على صحة ما ذهب اليه .

ولكن : اين الكتاب باللغة العربية ؟

لم يكــن هيرشبرغ قد عثر عليه كمــا لم يكن قد عثر على الحاوي باللغة العربية ايضا .

وكان على الاوساط العلمية ان تنتظر مجيء مايرهوف لينجز هــذا العمل الضخم .

فقد عثر مايرهوف على نسختين من هذا الكتاب احداهما في القاهرة في مكتبة خاصة ، والاخرى في لينينغراد .

وقد تمكن مايرهوف من ترميم هذا الكتاب بكل دأب وصبر وبدقة متناهية . .

وعاد مايرهوف ليعرض الكتاب على احد كبار المستشرقين الذي سلخ قسما من حياته وهو يدرس حياة حنين ولغته واعماله كترجمان ، وذلك لكي يتأكد من ان هذه اللغة ، وهذا الاسلوب هما لحنين .

هذا الاستاذ الكبير هوبيرجشتراسر في ميونيخ . .

وقد قرأ الاستاذ النص العربي باهتمام شديد ، ونبه مايرهوف الى بعض الاخطاء التي وقع فيها في عمله ، كما أصدر حكمه على الكتاب مبينا أن هذه اللغة التي كتب بها هي ليست لغة حنين دائما . ولا عجب فان حنين كتبه على مدى يزيد على ثلاثين عاما وربما جاءت الصياغة النهائية للمادة مرة على يد حنين ، ومرة على يد ابن اخته حبيش ، ومرة على يد تلاميذ آخرين . لذلك .. لم يعد أمامنا .. الا ان نقول : ان هذا الكتاب هو كتاب الفه حنين ، ووصل الينا بلغة اخرى . فان نسختنا المحققة والمطبوعة اذن نسخة منسوبة الى حنين كما عبر مايرهوف .

وهذا لا يقلل من قيمة الكتاب بالنسبة الى دارسي الطب ، ولكنه بالتأكيد يقلل من قيمته بالنسبة الى المؤرخين ودارسي اللغة .

وعلى الرغم من ذلك فان الكتاب احتفظ بالتعابير الفنية التي وضعها حنين فاليه يعود الفضل في ترجمة العديد من المصطلحات الطبية من اليونانية الى العربية . وفي الحقيقة فان اسماء معظم اجزاء العين التي نستعملها اليوم ، دون أن نعرف مصدرها .. هي أسماء لم تكن معروفة بالعربية قبل عصر حنين . واليه يعود الفضل في اشتقاق او نحت او وضع الكثير من التعابير الطبية بالعربية ولا غرو فقد امتلك حنين ناصية لغات العلم جميعا في عصره . . وترك بصمات اصابعه على لغتنا المعاصرة . . اكثر مما فعل اي ترجمان غيره . بل أي لغوي . . في تاريخ لغتنا الطويل .

واذا اردنا ان نعطي مثلا على ذلك فاننا نقول : ان هذه الكلمات الفنية، الشبكية ، او الصلبية ، أو القرنية ، هي امثلة على مدى فهمه للمعنى في لغة الاغريق . . وعلى مدى دقته في التعبير بالعربية .

كتاب المسائل في العين :

اما الكتاب الهام الآخر الذي كتبه حنين فهو (كتاب المسائل في العين) . وهو يحتوي على مائتين وسبع عشرة مسالة مع اجوبتها وصيغة الكتاب تشير الى انه كتب للمتعلمين .

ويحتوي الكتاب على ثلاث مقالات ونجد فيه ، اذا تاملنا مادته الطبية مختصرا مكثفا للمعلومات التي ينبغي أن يعرفها طلاب الطب .

وقد نشر الاب سباط ومايرهوف هذا الكتاب بعد أن نشر الكتاب الاول .

وينبغي علينا ان ننتظر دراسة علمية مقارنة لهذين الكتابين من وجهتي النظر : الطبية ، والتدريسية .

واذا اردنا ان نستعمل التعابير العصرية فاننا نقول ان علمي التشريح ووظائف الاعضاء قد احتوت عليهما المقالة الاولى . بينما غلبت على المقالة الثانية الدراسة السببية للامراض ، وخصصت المقالة الثالثة لاعراض الامراض وعلاماتها .

وقد ذكر ان حنينا كتب عددا من المقالات القصيرة او الرسائل .. بعضها يشبه بعض مقالاته التي وردت في كتابه الاول وبعضها ربما كان شيئا جديدا .

وقد راى الاب سباط بعض هذه المخطوطات في مكتبات خاصة في حلب ، الا انها لم توصف ولم تدرس بعد ، وقد اصبح مصير هذه المكتبات مجهولا للأسف .

واننا نجد انه اصبح من الضروري الان .. بعد نشر كتابي حنين الرئيسيين وبعد نشر (الحاوي) ، أن تجري دراسة مجددة للمادة العلمية التي كتبها حنين .

اعتمادا على هذه النصوص والمقتبسات لكي نعرف مقدار التجديد الذي اجراه حنين على فن طب العين ومدى التقدم الذي احرزته كتبه التدريسية قياسا على الكتب الاغريقية .

فمن الواضح أن حنينا كان اهم مرجع اعتمد عليه الكحالون العرب في تاليفهم في العصر الذهبي ، فاضافوا اليه من معلوماتهم ، وملاحظاتهم السريرية وخبرتهم المستقاة من العمل في المشافي وفي الممارسة الخاصة بعد ان نسقوا هذه الملاحظات بشكل منهجي .

المرتي ومما يملأ الجفون ايضا هذا الدوا **وصفته**

شاذنج درهم شنج محرق مرتك درهمان توتيا مغسول نصف درهم

لؤلؤ غير مثقوب نصف درهم اثمد محرق درهمان كحل اصفهاني

مربى نصف درهم يدق ويستعمل ذرورا وكحلا نافع ان شا الله

الباب الحادي والستون

في تغير لون القرنية وعلاجها

اما تغير لون القرنية فيكون من كمودة تحل فيصبغ لونها الطبيعي

فيقل نورها وضياؤها وصفائها ويقال لذلك استحاله ويكون ذلك من

سببين احدهما الكيفية المرطوبة اعني لكثرتها والآخر لكيفيتها اعني

للونها فان كانت لكيفيتها فانه يرى من يعرض له ذلك الاجسام كلها

كانها دخان او ضباب وسوف اذكر علاجه في رطوبة القرنية

ان شا الله تعالى فاما ان كان من جهة كيفيتها فمن اصابه ذلك

يرى الاجسام كلها باللون الذي هي عليه اعني القرنية وذلك انها

ان كانت حمرا مثل ما يعرض لمن اصابه الطرفة فانه يرى الاجسام كلها

حمرا ويكون صفرا مثل ما يعرض لمن اصابه اليرقان لمن يرى الاجسام

٣ ـ صفحة من مخطوط دمشق من « **تذكرة الكحالين** » لعلي بن عيسى .. الكحال البغدادي .


علي بن عيسى الكحال

وهذا ايضا احد اعظم اطباء العيون في التاريخ . انتقل بكتب التدريس الى اسلوب جديد في التصنيف ، متجاوزا حنين بن اسحق والاقدمين .

وقد سار على منهج علمي صارم ، مهتديا بالتقسيم التشريحي للعين ، فيبدأ بامراض الاجفان ثم بامراض جهاز الدمع ، ثم بامراض الملتحمة ، ثم ينتقل الى امراض القرنية فامراض القزحية وهكذا بينما كان المؤلفون قبل عصره يتحدثون عن امراض العين جملة واحدة دون تصنيفها حسب الاعضاء .

وفي كل فصل من فصول كتابه نرى وضوح اسلوبه وتسلسله المنطقي فهو يطالعنا اولا بتوضيح ماهية المرض وشرح طبيعته ، ثم يذكر اعراضه وعلاماته ، واوصافه ومميزاته ، وبعدها ينتقل الى ذكر اسباب هذا المرض ، وفي النهاية يذكر المعالجة .

وفي المعالجة لا يحيد عن اسلوبه العلمي ابدا . فهو يبدأ بالمعالجات العامة التي تطبق على الجسد لفائدة العين المريضة ثم يذكر الادوية الموضعية التي تطبق على العين .

وهذا النموذج من الكتب المدرسية ، مانزال نعمل وفقه حتى الان اي منذ الف عام . فاسلوب علي بن عيسى هو الاسلوب الذي مايزال يحكم طريقة التصنيف والتاليف والتدريس في مادة امراض العين .

ويعتبر هذا الكتاب حتى اليوم قطعة فريدة بين كتب التدريس ، من حيث اصالته وسبقه ودقته ومنهجيته واسلوبه ، لذلك فلا نعجب اذا عرفنا أن طلاب الطب انصرفوا عن الكتب الاخرى ما عداه ، وظل مرجعا للدارسين على مدى ثمانمائة عام ، كما أن الاطباء اعتمدوا عليه .

وهذا الكتاب اذا قورن بكتب حنين يعتبر خطوة هائلة الى الامام ،

ولا تعـرف البشرية خلال القرون الثمانية التي تلـت صدوره كتابـا يعادله في القيمــة .

وكان على البشرية ان تنتظر انتصار الافكار القائلة بان موضع السـاد هو في البلورة وليس امامها خلافا لما ذهب اليه جالينوس ، وكان عليهـا ان تنتظر ظهور نظريات (كبلر) في البصريات لكي تحصــل على كتاب يتفوق على كتاب علي بن عيسى هــذا اي ان الانتظار طـال حتـى القرن الثامن عشر .

وقد اطلق علي بن عيسى على كتابه اسم (تذكرة الكحالين) . ووصفه الباحثون بانه كتاب منهجي لطبيب مجرب مارس المعالجة والجراحة . كما ان الكتاب يعتبر بحق الكتاب التعليمي الكلاسيكي عند العرب فـي طـب العيــون .

وقد ترجم هذا الكتاب باكرا الى الفارسية والى اللاتينية ثم طبع مرارا . وعلى الرغم من ان الترجمة اللاتينية غير مفهومة واحيانا غـير مقروءة . . الا ان اوربا ظلت بحاجة اليه ردحا طويلا من الزمن .

وقد اعيد اكتشـاف هذا الكتاب من قبل مؤرخي الطب في العصـر الحديث ، ودرس بنصه الاصلي اي بالعربية ، ثم ترجـم الى كثير من اللغات الاوروبية ، فظهر عندئذ مدى ضعف وركاكة الترجمة اللاتينية وكذلك ترجم جزء من الكتاب ثانية الى اللاتينية في سنة ١٨٤٥ .

ويظهر لنا من قراءة هذا الكتاب ان مؤلفه كان مطلعا على ما كتبـه ابقراط وجالينوس وديوسقوريدس واوريباسيوس وبولص وحنين . فهو اذن مؤلف من الدرجة الاولى ، عـرف كتب الاقدمين واستفاد منها ، وكتب للطلبة فأجاد الكتابة ، اضافـة الى كونه طبيبا من الدرجة الاولى .

ويبدأ المؤلف بدراسة تشريح العين ووظائفها ، وتقـع هذه الابحاث في واحد وعشرين فصلا تشكل بمجموعها : المقالـة الاولى مـن تذكرة الكحالين .

اما المقالة الثانية ، فتبدا بدراسة الامراض وتشتمل هذه المقالة على

اربع وسبعين فصلا ، والمقالة الثالثة تكمل المقالة الثانية وتقع في سبع وعشرين فصلا .

ويستعرض المؤلف على سبيل المثال : امراض الملتحمة في خمسة عشر فصلا . وكذلك امراض القرنية . في نفس العدد من الفصول .

ونستطيع اليوم ان نقرأ هذا الكتاب مطبوعا بالعربية بفضل دائرة المعارف العثمانية التي نشرته سنة ١٩٦٤ في حيدراباد الدكن بتحقيق الاستاذ غوث محيي الدين القادري ، وكذلك نستطيع قراءته بالالمانية مع تعليقات هامة عليه بفضل الاستاذ الكبير هيرشبرغ .

وفي نفس الوقت الذي كتب فيه علي بن عيسى كتابه (تذكرة الكحالين) في بغداد ، ظهر جراح عبقري في الموصل كان كثير الاسفار ، واستقر به المقام في مصر ، وكتب كتابا مختصرا اسماه (المنتخب في علاج امراض العين) وهو عمار بن علي الموصلي .

وقد ظهر الكتابان في وقت واحد تقريبا ، وان دراسة الكتابين تؤكد لنا ان ايا من المؤلفين لم ير كتاب المؤلف الآخر .

ومع ذلك فاننا نرى في كتاب عمّار الاسلوب نفسه الذي اتبعه علي ابن عيسى في التاليف : الالتزام بالتقسيم التشريحي للعين عند تصنيف الامراض وعرض ماهية المرض أولا ثم ذكر علاماته وبعد ذلك شرح طرق المعالجة .

ويحق لنا ان نتساءل هنا كيف حدث هذا ؟ هل التزم كلاهما باسلوب سائد في ذلك العصر ؟ ام انهما اهتديا في وقت واحد الى هذا النوع من الاسلوب المنطقي في عرض المادة العلمية للدارسين ؟ أم ان كتابا ظهر بعد عهد حنين ، وقبل عهدهما سبقهما الى اتباع هذه الطريقة ؟ وكان مصدرا لهما ؟

واذا كان الاحتمال الثالث مرجحا .. فمن هو هذا المؤلف ؟

لا اريد في هذه العجالة ان اجيب على هذا التساؤل الكبير ، ولكنني اجدني مضطرا ان اشرح باختصار كيف يحاول مؤرخو العلوم الاجابة عليه

نحن لانعرف ـ من كتب التراجم ـ بعد عهد حنين ، وقبل عصر هذين المؤلفين الا ثلاثة من اطباء العيون الذين كتبوا كتبا في هذا الفن .

احدهم : ابو علي خلف الطولوني الذي الف كتاب (النهاية والكفاية في تركيب العينين وخلقتهما وعلاجهما وادويتهما) والذي توفي في النصف الاول من القرن الرابع للهجرة .

وثانيهما : اعين بن اعين الذي صنف كتابا هاما اسماه (كتاب في امراض العين ومداواتها) والذي نجد له ذكرا في قائمة الكتب التي اعتمد عليها خليفة ابن ابي المحاسن حينما الف بدوره كتابا في طب العين في مرحلة متأخرة ، ولكن خليفة يذكره تحت اسم (امتحان الكحالين) ، وبهذا الاسم عرفه صلاح الدين بن يوسف واقتبس عنه .

وثالثهما محمد بن سعيد التميمي من بيت المقدس ولكن هذا الطبيب لانعرف له الا كتابا واحدا : (في ماهية الرمد وانواعه واسبابه وعلاجه) .

ولما كان تعبير (الرمد) يستعمل فنيا في ذلك العصر ، للدلالة على التهاب الملتحمة الحاد ، حصرا ، وليس للدلالة على (أمراض العين) عموما كما يستعمل اليوم في مصر ، فاننا نستبعد ان يكون هذا الكتاب شاملا في امراض العين شأن الكتابين الاولين .

ولما كان كلا الكتابين مختفيا اليوم ، او مفقودا ، ولما كنا لا نعرف حتى الان اقتباسات هامة من اي منهما فانه من المتعذر ـ في حدود معرفتنا الان ـ ان نجيب على هذا السؤال الهام .

ثم : الا يمكن ان يكون صاحب هذا الاسلوب طبيبا أهمل اصحاب التراجم ذكره او طبيبا اشتهر ولم يترك لنا مؤلفا في طب العين ؟

وقد نسبنا الى علي بن عيسى فضل السبق الى هذا الاسلوب ذلك أن كتابه كان الكتاب الكلاسيكي للتدريس طيلة ثمانية قرون دون منازع وقد ظل هذا الكتاب متربعا على عرشه رغم ظهور كتب متأخرة العهد ككتاب خليفة الذي اشرنا اليه ، او كتاب صلاح

الدين بن يوسف او غيرهما ، من مؤلفي الكتب التدريسية بعد القرن الثاني عشر .

واذا كان كتاب (تذكرة الكحالين) قد نال هذه الشهرة وهذا الانتشار فان كتاب (المنتخب) قد رقد في زوايا النسيان وكان سيء الحظ على الرغم من تفوقه على (التذكرة) في كثير من الصفات ، ولا نريد هنا مقارنة بين الكتابين فهذا امر يخرج عن غاية هذا الكتاب .

ولذلك فاننا نفرد الى علي بن عيسى هذا الشرف في أن يكون صاحب الاسلوب الذي سيطر على المؤلفات التي جاءت بعده على مدى الف عام .



[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]



والتصوير الأخير [illegible] الرطوبات والطبقات التي [illegible]

[illegible]

أن الرطوبة الجليدية في وسط العين وأن خلفها رطوبة واحدة وثلث طبقات

وقدامها رطوبة واحدة وثلث طبقات [illegible]

[illegible] الرطوبة التي خلف الجليدية [illegible]

[illegible] أعضاء البدن لا بد [illegible]

[illegible] على المجرى الطبيعي [illegible]

[illegible]

[illegible] ذلك شبيه بطبيعة [illegible]

[illegible] زيادة شبيهة بطبيعة [illegible]

براهب متناسر في علم بارع وفهم ثاقب متلقف
به واعملت الحيلة عليه حتى اباح لي مطالعة
الهيكل المودعة فيه فوجدت في جملته الخطوط
الذي امر امير المومنين بطلبه مكتوبا بالذهب
وجهت الى الحضرة المنصورة كما ابا لهم ... ولم
يكن يوحنا هذا اطبيبا كانت الفلسفة
اغلب عليه ولم يخدم بالطب ملكا ولا اميرا
حنين ابو اسحاق تلميذ يوحنا بن ماسويه
عالما بلسان العرب فصيحا باللسان اليوناني
درايا بارعا في اللسانين بلاغة يبلغ بها تبيين علل
اللسانين ونهض من بغداد الى ارض فارس وكان
الخليل بن احمد النحوي رحمه الله بارض فارس فلزمه
فلزمه حنين حتى برع في لسان العرب وادخل كتاب
العين بغداد ثم اختبر للترجمة وائتمن عليها وكان
المتخير لها جعفر المتوكل على الله ووضع له كتابا
بخان

بسم الله الرحمن الرحيم، رب اسر بخير

هذا كتاب معرفة العين وطبقاتها

واسمايها ومجاريها واصول تراكيبها ومسايل

في عللها واستحان في كيفيتها وكيفية تركيبها

اذا اردت ان تعلم هل عنده علم بالعين

او معرفة على جهة المسئلة والجواب وانه يعين

على حقيقة علم ذلك بقال ان سالك سايل

فقال لك العين ماهي فالجواب في ذلك

ان يقول العين آلة البصر كان الاذن آلة

السمع والانف آلة الشم واللسان آلة المنطق

وكذلك العين آلة النظر فان قال منسايل ما

هي وماهي مركبة قيل له من عصب

وعضل ورطوبات وطبقات فان قال

صفها كيف تركيبها وما اسما طبقاتها ورطوباتها

وكيف تاليفها فقيل له في العين ثلث رطوبات

معرفة محنة الكحالين ابن ماسويه

نسخة نور عثمانية ــ اسطنبول

مطلع الكتاب ــ الورقه ١٢٨ ب من المجموع

(رقم ٣٥٧٦ / ٤)

وان قلت ثم تجد بينهما فرقًا ... ذلك لا من هذا التي ذكرناها في باب ... وهو باب ... واما في الكيفية

... اما في قوامها واما في لونها اما في قوامها فاذا انغلظت ونقلطها اما ان يكون يسيرا واما ان يكون

مفرطا فان كان يسيرا منع العين ان ترى البعيد دون ان تستقصي القريب وان كان غلظها مفرطا فان

كان في كلها منع البصر ... عند نزول الماء في العين وان كان في بعضها فانه يكون اما في

متصلة واما في اجزاء متفرقة فان كان في اجزاء متصلة فانه يكون اما في الوسط واما ان يكون

حول الوسط فان كان في الوسط راى من له ذلك في كل جسم يراه كوة لانه يظن ان ما لا يراه من الجسم

عميق وان كان حول الوسط منع العين ان ترى اجساما كثيرة دفعة حتى يحتاج ان يرى كل واحد

الاجسام ... البصر ... كان الغلظ في اجزاء متفرقة فان من له

ذلك يرى بين يديه اجساما مثل اشكال تلك الاجزاء الغليظة وقوامها كالبق والذباب

والشعر وما اشبه ذلك وقد يعرض ذلك كثيرا للصبيان عند القيام من النوم وللمحمومين ايضا

فاما في لونها فانه على ثلث جهات اما ان يتغير ... الذي هي عليه فان كان لونها

الى ... الاجسام ... على حسب الالوان التي هي عليه

يكون ... والصفرة من اليرقان والثالث انه ربما تغيرت

في بعض الاوقات بسبب بخار يتصاعد اليها ... فترى الاجسام على حسب لون تلك البخار والثالث

انه ربما تغير ... اصابه ... اجساما شبيهة في الوانها واشكالها بالاجزاء

تلك الرطوبة ... ذلك ... وربما يتصاعد الى ... بخارات

... وكانت ... صافية ... وكذلك ... يكون ... وربما يعرض

من ذلك ... العين واما ان يكون في جزء منها واما ان يكون في اجزاء متفرقة وحكمها حكم الغلظ ...

... في ... ذلك ... ذكرت

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب [illegible] في علل العين [illegible]

وعللها [illegible] وكيفية [illegible] ان تعلم [illegible]

[illegible] في العين [illegible] والله [illegible]

[illegible] فقال [illegible] العين [illegible] ذلك ان [illegible] العين [illegible]

[illegible] الطبقة [illegible] والسان [illegible]

[illegible]

[illegible] الطبقات [illegible] والرطوبات [illegible]

[illegible] الطبقة [illegible] الرطوبة الزجاجية [illegible]

[illegible] الرطوبة البيضية [illegible] الطبقات [illegible] الرطوبة [illegible]

[illegible] الطبقة [illegible] العنكبوتية [illegible]

[illegible] الطبقة القرنية [illegible]

[illegible] الرطوبة [illegible] الطبقة [illegible] الرطوبة الزجاجية

[illegible] الشبكية [illegible] المشيمية [illegible] الطبقة الثالثة [illegible]

على [illegible] المشيمية [illegible] العين [illegible]

[illegible] الدماغ [illegible] تكون

[illegible] الروح [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

ابن ماسويه   معرفة محنة الكحالين   تيمور

زعفران وساذج هندي من كل واحد وزن درهم يسحق التوتيا
اولاً واللؤلؤ والمرقشيثا بالماء ثلاثة ايام ويجفف ويضاف اليه
باقي الادوية ويستعمل نافع. وفي نسخة اخرى توتيا عشرون درهماً.

كحل عجيب من نسخة اخرى يؤخذ ساذج تسعة دراهم
توتيا ثلاثة دراهم قليميا الذهب درهم واحد تجمع على
هذا الوزن فانها تقوم مقام الكحل المتخذ من الاثمد والحجر

الحاسوس [illegible]
[illegible] توتيا هندي وقليميا ومرقشيثا
من كل واحد

فان ضعف البصر لعارض للناقهين ولا تعرض له بشي [illegible]
البدن [illegible] الخضرة والمشي في البساتين فانه مما [illegible]
البصر

الباب الثالث والعشرون

في [illegible]

الصحة [illegible] تدبير وهذا التدبير هو الذي [illegible]
حفظ الحال على ما هي عليه لان الصحة هي [illegible] البدن جارية
على المجرى الطبيعي وتدبير الصحة يختلف من اجل ان كل واحد
من الناس مخالف لصاحبه في المزاج فمنهم الحار ومنهم البارد
ومنهم

هذا الحجر يعمل من بلاد الهند [illegible]

رسالة تذكرة الكحالين في امراض العين من مؤلفات الحبر الكامل والحكيم الفاضل علي بن عيسى الكحال

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين وصلواته على محمد وآله الطاهرين

ورد كتابك ايها الأخ

الفاضل حفظك الله برأفته وارشدك الى الصواب برحمته تسئل عن جوامع كتب جالينوس في امراض العين
وعلاج كل مرض منها لان الاسكندرانيين ذكروا عدد امراض العين ولم يذكروا علاجاتها وقد رايت ان اولف
لك كتابا في العين اذكر فيه جميع ما سئلت عنه باختصار ورايت ان الاختصار اذا اجمع ثلث خصال اعني الاستقصاء
في الصنعة والتأييد في الاستتمام بمعنى والثالث الايجاز للكلام كان افادة ذلك ابلغ واحصلت مقالات وسميته
تذكرة الكحالين لاني جمعت فيه جميع ما سئلت عنه وتحتاج اليه في علاج امراض العين وذلك انه قد يتعذر الحضور
في بعض الاوقات الى النظر في الكتب في علاج مرض من الامراض فتستغني به عن النظر في الكتب الكبار وصلح
ايضا للانسان لانه يغنيه عن حمل الكتب الكثيرة [illegible] ذكرت فيه الطرق الطبية المحتاج اليها في علاج امراض
العين مع ذكر الدلائل والاسباب واعدادها وجميع [illegible] الاجزاء منها والالة وما يجوز منها [illegible]
الاتصال واسئل الله التوفيق في اتمام ما ذكرت المقالة الاولى اذكر فيها حد العين وتركيبها وتشريحها وعدد
طبقاتها ورطوباتها واعصابها وعضلاتها [illegible] باب لكل واحد من طبقاتها ومن اين ابتداؤها والى اين انتهاؤها
واين موضعها من العين وما منفعتها [illegible] المقالة الثانية اذكر فيها عدد امراض
العين الظاهرة للحس واسبابها وعلاجاتها وعلاماتها ليسهل في ذلك عليك المقالة الثالثة اذكر فيها عدد
امراض العين الخفية عن الحس واسبابها وعلاماتها [illegible] اذكر علاجاتها وشرح ادويتها وتلطفت في تلخيص هذا الكتاب
من كتب الاوائل ولم اؤلف فيه شيئا الفته من تلقاء نفسي سوى اشياء يسيرة شاهدتها [illegible]
في اعمالي هذه [illegible] وذلك بعد ان نظرت في كتب كثيرة من المشهورين بالحذق [illegible] في كتب الفاضل جالينوس
والفاضل حنين ايضا لانه اجتنى ازهار جميع الكتب التي وضعها من كان قبله جالينوس ومن بعده [illegible] و
اخترت منها احسن ما وجدت فيها وليس هذا بمستصعب لان الفاضل جالينوس الف في كتبه اشياء كثيرة من قول
[illegible] وانا [illegible] وصفتها [illegible] في هذا الكتاب [illegible] ذلك [illegible]

نفيس ٤

علي بن عيسى ـ نسخة طهران

ديوسقوريدس وتلميذ له

صورة لديوسقوريدس وتلميذ من تلاميذه يمسكان بنبتة طبية .

وتؤكد هذه اللوحة على فكرة قيام الاستاذ بالتدريس .

واغلب الظن ان هذه الصورة تعود الى رسام من شمال بلاد الشام او العراق في القرن الثالث عشر الميلادي (٧ هـ) .



الصيدلية

الصيدلي او مساعده في الطابق الاسفل يحضّر دواء .. بينما تخزن الادوية في اوان كبيرة تحتل الطابق العلوي من الصيدلية ، والاغلب ان الصيدلي هو الشخص المرسوم في الايسر .

وقد انفصل علم الصيدلة عن علم الطب في العهد الاسلامي .


يسمى الطعام او من كانت قوته الخل وصفته على هذا الصفة

ابن سينا يجس نبض مريض

اشتهرت هذه القصة كثيرا . اذ رواها معظم مؤرخي الطب العربي عن ابن سينا الذي يجس نبض مريض . ويعرف من تسرّع النبض انفعالات المريض . ويكشف قصة غرام الفتى بعد ان يحدد بلد وحي وعشيرة المحبوبة .



العضلات المحركة للعين

وهذا اقدم رسم تشريحي في تاريخ الطب ، اذ لم يبق لنا من عهد قدماء المصريين أو الافريق اية مصورات تشريحية .

وهذه الصورة من مخطوط حنين بن اسحق (العشر مقالات في العين) . وقـد عاش حنين في القرن التاسع الميلادي (٣ هـ) .



الثانيه في طبيعه الدماغ ومنافعه قد يجب على من اراد
طبيعه العين ان يكون بطبيعه الدماغ عالما اذ كان مبداها منه
لها يرجع اليه وانما يعرف الانسان طبيعه الشي اما عده واما
التي هو مخصوص بها فلذلك قد يجب علينا ان نعلم ما حد الدماغ
الذي هو مخصوص به فنقول ان كل عضو من الاعضا يحد بحدين
عنصره اعني من طبيعته والاخر من نوعه اعني من فعاله ومنفعته
ضا خاص بخاصتين اي بحد بحدين احدهما كما ذكرنا من طبيعته وهو
ان الدماغ عضوا باردا ابرد اعضا البدن وارطبها ٥ والحد الاخر
والحاجه اليه وهو ان نقول ان الدماغ ابتدا الحس والحركه
والسياسه وكلي الحدين خاص الدماغ دون غيره من الاعضا ٥
الاول وهو ان الدماغ ابرد اعضا البدن وارطبها فانه لا يع
الاعضا مع الدماغ لانه ليس في البدن عضو ارطب من الدماغ
منه وذلك لما انا ذاكره لك بعد ايضاح فعل الدماغ ٥ واما
الثاني ان الدماغ ابتدا الحس والحركه الاراديه ٥

كلمة شكر

هذه الدراسة استدعت تصوير بعض المخطوطات ومراجعة المصادر التراثية في عدد من المكتبات .

وقد تكرم السادة القائمون عليها بالسماح بالعمل . وسهّلوه ، وجعلوه ممتعاً . فلهم جزيل الشكر وهذه المكتبات هي :

مكتبة طوب قابو سراي	اسطنبول
المكتبة السليمانية	اسطنبول
مكتبة نور عثمانية	اسطنبول
مكتبة الدولة	برلين الغربية
مكتبة المتحف العراقي	بغداد
مكتبة المجمع العلمي العراقي	بغداد
دار الكتب الوطنية	تونس
مكتبة تشسر بيتي	دبلن

Chester Beatty

Dublin

دار الكتب الظاهرية	دمشق
مكتبة مجلس الشيوخ (سنا)	طهران
مكتبة مجلس النواب (مجلس شوراي ملّي)	طهران
مكتبة الاقليم	غوتا Gotha
مكتبة الفاتيكان	الفاتيكان